المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وأفصح الناطقين وأبلغ المتكلمين سيدنا محمد (ﷺ) وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعـــد ...

فالدراسة في بلاغة النبي (ﷺ) وإن كانت محطًّا لنظر كثير من الدارســين إلا أنها لم تكن – حسب علمي – بالحجم نفسه الذي نالته الدراسة في البيان القرآني على الرغم من وثاقة الصلة بينهما. ولعلَّ ذلك راجع – فيمــا أرى – إلــى قلــة المراجع التي قد يعثر عليها الباحث للبلاغة النبوية بجانب المراجــع المتــصلة بالقرآن الكريم، مما يجعل البحث في البلاغة النبوية بحاجة إلى مضاعفة الجهد، وإطالة النظر وصولاً إلى النكات البلاغية.

ولا يفهم من كلامي هذا أنه لم تكن هناك دراسات في البلاغة النبويــة علــى الإطلاق، وإنما ذلك بالمقارنة بالدراسة في البلاغة القرآنية، لــذلك أردت الإدلاء بدلوي في هذه البئر العميقة طالبًا من الله – تعالى – العون على تسديد الخطــى، وتصحيح القصد، من خلال هذه الدراسة المتواضعة التي تعرَّضت فيها لبلاغــة النبي (ﷺ) من خلال حديثه عن أولي العزم. وترجع أهمية هذه الدراسة إلى أنها تكشف اللثام – ولو بعض الشيء – عن بعض مظاهر بلاغة النبي (ﷺ) الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علَّمه شديد القوى.

كما أنها تعد مادة تطبيقية يتبين من خلالها الفصاحة العالية التي اشتمل عليها كلام النبي (ﷺ) مما لا يصل إليه كلام بشر.

ولا غرابة في ذلك فهو الذي اختاره ربُّه من بين البشر ليكون خاتمًا للرسل (عليهم السلام) وجعل بيانه تفسيرًا لما جاء في كتابه العزيز[1]، فكانت منزلة كلام النبي (ﷺ) من منزلة كلام من اصطفاه (سبحانه وتعالى).

ومجال هذه الدراسة هو كلام النبي (ﷺ) من خلال حديثه عن أقرانه من أولي العزم من الرسل (نوح – إبراهيم – موسى – عيسى) (عليهم السلام) من خلال بعض ما أورده الإمام البخاري (رحمه الله) في صحيحه متناولاً ذلك بالتحليل الدقيق لسماته الفنية والأسلوبية، وبيان ما تضمنه من أسرار بلاغية.

ولم أدخل في هذا البحث حيث النبي (ﷺ) عن نفسه لما وجدته من أحاديث كثيرة تحدث فيها النبي (ﷺ) عن نفسه مما يتطلب بحثًا مستقلاً قد أقوم له في المستقبل – إن شاء الله تعالى –.

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التحليلي فكنت أعرض الحديث تحت مقام معين مبينًا الغرض العام والأسلوب الأعلى المسيطر على سياقه، ومدى توافقه مع مقامه الحديث ثم ما يتآزر معه من أساليب أخرى مساعدة وصولاً لتحقيق المعنى، وما يتبع ذلك من دقة في استخدام المفردات أو الحروف وغير ذلك.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة:

المقدمة: وهي عن أهمية الموضوع ومنهج السير في دراسته.

المبحث الأول: السمات البلاغية في الحديث عن نوح (عليه السلام).

المبحث الثاني: السمات البلاغية في الحديث عن إبراهيم (عليه السلام).

المبحث الثالث: السمات البلاغية في الحديث عن موسى (عليه السلام).

---

(١) ينظر: السنة بيانًا للقرآن. د/ إبراهيم الخولي (٨/١)، إصدار الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٩٣م.

المبحث الرابع: السمات البلاغية في الحديث عن عيسى (عليه السلام).

والخاتمة أوجزت فيها خلاصة ما قدمته في هذه الدراسة.

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل

الباحث

دكتور / ياسر عبد الحميد عرقوب

مدرس في قسم البلاغة والنقد بالكلية

المبحث الأول
السمات البلاغية في الحديث عن نوح (عليه السلام)

أولاً: السمات البلاغية في الحديث عن نوح (عليه السلام) في مقام الإنذار:

لعل من أهم القضايا التي شغلت سيدنا نوحًا (عليه السلام) هي قضية الإنذار، وهذه القضية وإن كانت من شواغل كل الأنبياء (عليهم السلام) إلا أنها لم تكن الغالبة على دعوتهم كما هو الحال بالنسبة لنوح (عليه السلام) فقضيته الأولى والغالبة هي الإنذار، ولعلَّ اختصاصه بذلك راجع إلى علمه بأن قومه لن يؤمنوا كما أخبره ربه – سبحانه – ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة هود: (٣٦)].

فلم يعد أمامه إلا أن ينذرهم ويخوفهم مما سيفعل بهم، كما أن اختصاصه بهذه الصفة أيضًا فيه ارتباط وثيق بينها وبين قوله – تعالى – في مطلع السورة المسماة باسمه ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [سورة نوح: (١، ٢)].

ويأتي البيان النبوي مؤكدًا على قيام نوح (عليه السلام) بمهمة الإنذار كما أمره ربه – سبحانه – وقد جاء ذلك من خلال حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الدجال والتخويف منه كما في الحديث التالي:

"نصّ الحديث"

عن ابن عمر (رضي الله عنهما): قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: "إنِّي لأنذركموه، وما من نبي إلا أنذره قومَه، لقد

أنذر نوح قومه، ولكن أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور".[1]

والحديث كما هو واضح بعض خطبة ألقاها النبي (ﷺ) والمقام للتحذير والتخويف من الدجال الذي ينزل في آخر الزمان وما يحدث من فتن.

ولما كان المقصد من الحديث التحذير والتخويف فقد جاءت مفردات الحديث وتراكيبه مرتبطة ارتباطًا وثيقًا ومتساوقًا مع الغرض منه.

ولعلَّ أول ما يلفت النظر في الحديث هو كثرة المؤكدات تناسبًا مع مقام التحذير المقتضي أن تكثر أساليب التوكيد حتى يؤتي التحذير ثماره.

فيبدأ الحديث بقوله (ﷺ): "إنِّي لأنذركموه" مؤكدًا بإن واللام واسمية الجملة مبالغة في التخويف لأخذ الحيطة من فتنته.

والتعبير بالجملة الاسمية إشعار باستمرارية هذا التحذير وثبوته من أول الأمة إلى آخرها وعدم اختصاصه بالمخاطبين فقط، لما هو معلوم من أن (الجملة الاسمية تفيد الثبات والاستمرار وهما من عناصر القوة والتوكيد). [2]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله (ﷻ) "ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه" صـ(٦٩٦)، حديث رقم (٣٣٣٧)، ت / طه عبد الرءوف سعد، دار الاعتصام، القاهرة، طبعة سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م. والدجَّال: فعَّال من أبنية المبالغة لكثرة الكذب فيه، وهو من الدجل وهو الخلط والتلبيس والتمويه، وسمي الكذاب دجالاً لأنه يغطي الحق بباطله. ينظر: عمدة القاري (٣٧٥/١٢)، وفتح الباري (٩١/١٣).

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، صـ٤١٨، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م.

وابتداء هذه المؤكدات بإن بلاغة نبوية عالية، وذلك لأن "إنَّ" فضلاً عن أنها أكثر أساليب التوكيد ورودًا في الكلام فهي (تكثر عقب الأوامر والنواحي التي يحتاج تنفيذها إلى كلفة ومشقة، فكان ما فيها من مصادر النفس، ومغالبة الهوى، والتثاقل في أدائها بحاجة إلى ما في حرف التوكيد من الإلهاب والتهييج). [١] ولا شك أن مجاهدة الدجال في هذا الزمن من أشق الأمور على النفس لما ورد من أنه يأتي بفتن كثيرة لا ينجو من الاغترار بها إلا من قَوِيَ إيمانُه ولذلك تناسب أن تبدأ المؤكدات في هذه الجملة التحذيرية بإن.

واستعمال صيغة الإنذار دون غيرها مما قد يؤدي المعنى نفسه كالإعلام والإخبار له دلالته، وذلك لأن الإنذار (إعلام معه تخويف، فكل منذر معلم، وليس بالعكس) [٢] فناسبت صيغة الإنذار مقام التحذير من الدجال. ولم تقتصر المؤكدات على جملة البدء فقط، وإنما تتبعها جملة "وما من نبي إلا أنذره قومَه" وهي كما نرى متزاحمة بعناصر التوكيد المختلفة. فهي مؤكدة "بمن" التي جاءت صلة لتأكيد توافر كل الأنبياء (عليهم السلام) على التحذير من الدجال. وما يتضامن مع التوكيد هنا تنكير "نبي" لإفادة العموم وأن أحدًا من الأنبياء لم يتخلَّ عن هذا التحذير، وكذلك أيضًا اختيار وصف النبوة دون الرسالة لعموميَّة النبوة، فكل رسول نبي وليس بالعكس وهذا دليل أيضًا على عمومية الإنذار.

---

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم "الفاء وثم"، د/ محمد الأمين الخضري، صـ(١١٣)، مكتبة وهبة.

(٢) فروق اللغات في التمييز بين مَفاد الكلمات لنور الدين بن نعمة الله الحسيني الموسوي الجزائري – ت د/ محمد رضون الداية، صـ(٥٦)، ط١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

وإيراد هذا المعنى في سياق أسلوب القصر بما وإلا وهو من أقوى المؤكدات إشارة قوية، وتأكيد بالغ على أن أحدًا من الأنبياء لم يترك هذا الجانب التحذيري.

ويفهم من توافق كل الأنبياء على التحذير من الدجال ضرورة الحذر منه، ومما يحدثه من فتنة خاصة بعد أن اتضحت معظم أوصافه لأنه من البدهي أن يذكر كل نبي لقومه صفة أو صفات لم يذكرها من قبله.

ولعلَّ الحكمة في تحذير جميع الأنبياء (عليهم السلام) منه (أنهم علموا بخروجه وشدة فتنته، وتوهم كل نبي إدراك أمته فأنذرهم منه)[1] وهذا إن دلَّ فإنما يدل على حرص كل نبي على أمته، وخوفه عليها، لما يعلمه من خطورة هذا اللعين، وتعدد حيله، وضعف الزمان الذي ينزل فيه.

ثم يأتي البيان النبوي بمؤكد آخر لتحذير كل نبي أمته، وذلك قوله (ﷺ): "لقد أنذر نوح قومه" وهذه الجملة فضلاً عن غنائها بالمؤكدات الخاصة بداخلها من التأكيد باللام وقد "لقد" تأكيدًا لتحقيق إنذار نوح (عليه السلام) لقومه فهي مؤكِّد قويٌّ للجملة التي قبلها "وما من نبي إلا أنذره قومه" فهي من ذكر الخاص بعد العام حيث إن نوحًا (عليه السلام) داخل في جملة الأنبياء (عليهم السلام) ولكنه أفرد بالذكر تأكيدًا لعمومية الإنذار.

ولشراح الحديث أقوال متعددة في سبب تخصيص نوح (عليه السلام) بالذكر بعد ذكره في جملة الأنبياء مع أن الكل حذَّر منها:

---

(١) دليل الفالحين لابن علان الصديقي، ت/ عصام الدين الصبابطي (٥٤/٤)، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

ما ذكره ابن حجر من أنه (أول من ذكره، وهو أول الرسل المذكورين في قوله تعالى: "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك ...". [١]

وزاد العيني على ما ذكره ابن حجر (أنه أبو البشر الثاني وذريته هم الباقون في الدنيا لا غيرهم). [٢]

ويبدو لي – والله أعلم– أن الحكمة في تخصيص نوح (عليه السلام) بالذكر أن نوحًا (عليه السلام) أول الرسل إلى أهل الأرض، ومحمد (ﷺ) خاتم الرسل فعندما يُنذر محمد (ﷺ) بالدجال وهو خاتم الرسل، ويستشهد بإنذار نوح (عليه السلام) وهو أول الرسل، فهذا دليل قوي على أن كل الرسل قد أنذروا أقوامهم وحذروهم من هذا اللعين، وعلى هذا تكون هذه الجملة "لقد أنذر نوح قومه" تأكيدًا للجملة قبلها "وما من نبي إلا أنذره قومه"، ولكونها مؤكدة لما قبلها فقد فصلت عنها لكمال الاتصال[٣] بينهما لتنزلها منها منزلة بدل البعض من الكل، بخلاف الجملة التي قبلها وهي قوله: "وما من نبي إلا أنذره قومه" حيث وصلت الواو بينها وبين سابقتها "إني لأنذركموه" لإشراك النبي (ﷺ) مع إخوانه الأنبياء في الإنذار هذا فضلاً عما

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، إعداد / موقع روح الإسلام، ت/ عبد العزيز بن باز ومحب الدين الخطيب، ترقيم / محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار الباقي.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، ٧٦٢ – ٨٥٥هـ، طبعة الحلبي، ط١، ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م.

(٣) كمال الاتصال حقيقته: "أن تكون الجملة الثانية متصلة بالأولى اتصالاً تامًا بحيث تكون منزلة منها منزلة التوكيد أو البدل أو عطف البيان. ينظر: شروح التلخيص، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، ط١، ١٣٢٣هـ.

توحي به الواو من علاقة قوية ومشاركة بين النبي (ﷺ) وبين إخوانه الأنبياء في كثير من الأصول. فلاءم كل من الفصل والوصل سياقه ومقامه.

وقوله (ﷺ): "ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور".

وقد اقتصر البيان النبوي هنا على صفة العوَر دون غيرها من الصفات الأخرى مما قد ذكرته بعض الروايات من أنه يجيء بمثال الجنة والنار، فالتي يقول إنها الجنة هي النار وهي إحدى روايات البخاري، أو أنه مكتوب بين عينيه ك ف ر وهي رواية مسلم وغير ذلك من الصفات التي تنافي ادعاءه الألوهية، ولعلَّ ذلك (لكون ظاهرة العور أشد محسوس يدركه العالم والعامي ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية، فإذا ادعى الربوبية وهو ناقص الخلقة والإله تتعالى أوصافه عن النقص علم أنه كاذب).[1] وهذا يدل على شدة حرص النبي (ﷺ) على أمته حيث أتى لهم بوصف ظاهر يستوي في إدراكه العامة والخاصة، ومن لا يعرف القراءة ومن يعرفها.

ومن أسرار اختصاص النبي (ﷺ) أمته بهذا الوصف الظاهر الذي يعدُّ من أوضح الأدلة في تكذيب الدجال ما ذكره ابن حجر وهو (أن الدجال يخرج في أمته دون غيرها من الأمم)[2] فتطلب ذلك الإتيان بوصف ظاهر واضح وهذه زيادة في التحذير والتخويف من فتنته حتى لا يبقى هناك عذر لمن يغتر به، ويتبعه.

---

(١) دليل الفالحين: (٥٤٦/٤)، وينظر: فتح الباري: (٩٦/١٣).

(٢) فتح الباري: (٩٦/١٣).

ومن أهم المظاهر البلاغية الدالة على شدة التحذير من الدجال وكذبه ما اشتمل عليه التركيب من طباق السلب وهو (الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي) [1] وقد ورد ذلك في موضعين:

الأول: بين أقول ولم يقله حيث أثبت القول مرة ونفاه أخرى لإثبات فرادة الوصف الذي يأتي به النبي (ﷺ) وخصوصيته به لتأكيد أخذ الحيطة منه.

الثاني: قوله "أنه أعور وأن الله ليس بأعور" حيث أثبت العَوَرَ مرة ونفاه أخرى ليحرِّك الذهن للوقوف على المطلوب وهو التأكيد على كذب الدجال في ادعائه، والمبالغة في افتضاح أمره.

واستعمل الإضمار في موطن الإظهار في قوله: "أنه أعور" بدلاً من أن يقال: أن الدجال أعور، وإن كان الإظهار من موافقة السياق وذلك لمناسبة قوله "وأن الله ليس بأعور" لكن البلاغة النبوية اقتضت التعبير بالضمير تحاشيًا من ذكر اسمه في مقابلة اسم المولى – سبحانه– وهذه نكتة بلاغية لطيفة، خاصة وأن جملة "وأن الله ليس بأعور" ذكرت كما ذكر العيني: (لتنزيه المولى (ﷻ))[2]، هذا فضلاً عما أفاده الإضمار من امتهان ذكر اسمه واحتقاره.

كذلك من المظاهر البلاغية الدالة على شدة تحذير النبي (ﷺ) من الدجال مجيء الأسلوب في صورة غير صورته الحقيقية ولا يكون ذلك إلا لغرض بلاغي. من ذلك ورود الأمر بالعلم بالصفة التي يذكرها النبي (ﷺ) لأمته عن طريق الخبر لا الأمر المباشر، ويظهر ذلك في قوله (ﷺ) "تعلمون" ومعناه:

---

(١) شروح التلخيص: (٤/٢٩٠).

(٢) عمدة القاري: (١٢/٣٧٥).

اعلموا، وذلك بغرض الحث على العلم، والإسراع إلى معرفة ما سيخبر به، والتأكيد عليه، يقول الزمخشري: (إخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله). [1] كما يشتم منه أيضًا رفق النبي (ﷺ) بأمته، فهو يخاطبها هنا والأمر المباشر لا يخفى ما فيه من ثقل على النفس مهما كانت حقيقة المأمور به، ولا تدرك ذلك إلا النفوس الرقيقة، فكان الأبر ببلاغة النبي (ﷺ) ورفقه بأمته أن يأتي الأمر عن طريق الخبر هنا لما فيه من تأكيد ورفق كما ذكرت.

وبمعاودة التأمل في الحديث نجد أنه قد تآزرت كل الألوان التعبيرية سواء على مستوى المفردات أو الجمل لرسم هذه اللوحة التحذيرية، وكذلك رسم صورة ضوئية للمحذَّر منه حتى يعرفه الجميع، ويفتضح أمره بين العامة فضلاً عن الخاصة، وكانت كل هذه الألوان غاية في البلاغة والتناسب، وكان أسلوب التوكيد هو المهيمن على الحديث من بدايته إلى نهايته، وفي هذا توافق مع مقام الحديث كما سبق أن ذكرت خاصة وأن المحذَّر منه هو الدجال الذي يصيب الناس في معتقدهم بادعائه الألوهية، فكان لابد من تأكيد التحذير منه بأساليب قوية تتناسب مع خطورته. كما أن التخصيص بعد التعميم بذكر تحذير نوح (عليه السلام) لقومه منه أحد الركائز الأساسية في تأكيد التحذير، وبجانب التوكيد كانت

---

(١) الكشاف للزمخشري، ترتيب وضبط وتصحيح / محمد عبد السلام شاهين (٢٦٧/١)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

وهناك بحث منشور للباحث بعنوان "الأمر عن طريق الخبر – مواقعه وأسراره في الذكر الحكيم – بمجلة قطاع كلية اللغة العربية والشعب المناظرة لها، العدد الرابع ٢٠٠٩م / ٢٠١٠م.

هناك صور أخرى من فصل ووصل وطباق وغيرها تآزرت كلها لإخراج المعنى في أبهى صورة، مما يجعلنا نقرر أن البلاغة النبوية وإن كانت صادرة من بشر إلا أنه لا يمكن لبشر أن يصل إليها، لأنها وإن كان المتلفظ بها بشرًا فإن مصدرها الحقيقي هو رب البشر (ﷻ).

ثانيًا: السمات البلاغية في الحديث عن نوح (عليه السلام) في مقام التكذيب:

اشتهر قوم نوح (عليه السلام) بكثرة التكذيب والعناد، وقد تحدث القرآن الكريم عن تكذيبهم له في الدنيا في آيات عديدة، وإصرار نوح (عليه السلام) وتفانيه في دعوتهم ليلاً ونهارًا، ولكنهم دائمًا ما كانوا يقابلون ذلك بالصدود والنكران حتى إنهم قالوا له ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة هود: (٣٢)]، واشتد مكرهم وعنادهم مما دعاه إلى أن يدعو عليهم قائلاً: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة نوح: (٢٦)].

وتأتي السنة النبوية المطهرة لتبين أن هذا التكذيب كما كان ملازمًا لهم في الدنيا كما قصَّ القرآن الكريم فسيظل ملازمًا لهم حتى في الآخرة بين يدي المولى – سبحانه – مما يدل على تأصل صفة الكذب فيهم.

فالقرآن الكريم ذكر تكذيبهم له في الدنيا وإظهاره عليهم بإغراقهم ونجاته، والسنة المطهرة ذكرت تكذيبهم له في الآخرة وشهادة محمد (ﷺ) وأمته له، ونصرته عليهم في الآخرة. ويتجلى ذلك من خلال هذا الحديث.

"نصّ الحديث"

عن أبي سعيد (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): "يجيء نوح وأمته فيقول الله تعالى: هل بلّغت ؟ فيقول: نعم، أي ربّ، فيقول لأمته: هل بلّغكم ؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك ؟ فيقول: محمد (ﷺ) وأمته، فيشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾. (١)

ومقام الحديث يحكي مشهدًا من مشاهد القيامة، مشهد نوح (عليه السلام) مع قومه، وتكذيبهم له، وافترائهم عليه بين يدي المولى – سبحانه – الذي يعلم السر وأخفى، فيطلب منه ربّه شاهدًا يصدقه، فيستشهد بمحمد (ﷺ) وأمته، فيشهد الجميع بأنه قد بلَّغ.

وهو مشهد تتعدد لقطاته كما نرى.

وسياق الحديث يحمل الكثير من الأسئلة وأجوبتها، وهي محاطة بالإيجاز لأن المقام يتطلبه، فالمشهد في زمان يوم القيامة، وبين يدي المولى – سبحانه – فالنفوس ضائقة مرتعدة ليست في حال تسمح بالإطناب، لذلك كان الاستفهام والإيجاز هما السمة الغالبة على الحديث.

ويبدأ الحديث بقوله (ﷺ): "يجيء نوح وأمته" باستعمال صيغة المجيء دون الإتيان الذي هو بمرادفها لأن المجيء أعم من الإتيان(٢)، وفي هذا تناسب مع

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله (عز وجل) "ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه"، صـ(٦٩٦)، حديث رقم (٣٣٣٩).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ت (٥٠٢هـ)، تحقيق وضبط: محمد خليل عيناني (جاء)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.

جوٍّ القيامة حيث يجيئون بكل أفرادهم وأوصافهم وما كانوا عليه في الدنيا لا ينقص منه شيء حتى يكون التسجيل عليهم عامًا، فكان التعبير بالمجيء أوفق للمقام، وأبر بالأسلوب، كما أن استعمال المجيء لما هو أصعب وأشق[1] وهو متناسب مع مجيء يوم القيامة.

والإتيان به مضارعًا استحضار للمشهد، والواو للمعية أي: يجيء نوح مع أمته، ودلت هذه الواو على أنه مشهد حافل يجمع نوحًا (عليه السلام) مع قومه، وتكذيبهم له سيكون بمرأى ومسمع منه، مما يدل على كمال جراءتهم، وشدة افترائهم.

وتقديم نوح (عليه السلام) عليهم اهتمامًا به لأن منزلته أعلى فهو تقديم للرتبة أيضًا كما هو تقديم في الكلام.

"فيقول الله تعالى: هل بلَّغت ؟ فيقول: نعم، أي رب".

قوله: "هل بلّغت ؟" استفهام يقصد منه التقرير والتحقيق لإقامة الحجة عليهم، فليس الاستفهام هنا على حقيقته، فالله (سبحانه وتعالى) يعلم أنه قد بلغ، فلابد إذًا أن يحمل الاستفهام على غير حقيقته، وهو هنا للتقرير.[2]

والملاحظ أن هناك اتساقًا بين السؤال والإجابة حيث جاء السؤال على طريقة الإيجاز بالحذف، والتقدير: هل بلَّغت قومك ما أمرتك به ؟ وجاءت الإجابة أيضًا

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د/ فاضل السامرائي، صـ(١٠٤)، دار عمار، عمان، الأردن.

(٢) من المعلوم أن الاستفهام يكون تقريريًا إذا كان المستفهم عنه مثبتًا في المعنى، ومن ضوابطه حلول (قد) محل أداة الاستفهام. ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، د/ عبد العظيم المطعني (٥/١)، نشر مكتبة وهبة، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

متناغية مع السؤال في الإيجاز حيث أجاب نوح (عليه السلام) بنعم دون أن يقول: نعم بلَّغتهم، ولا يخفى ما في الإيجاز من تناغم مع المقام كما ذكرت، هذا فضلاً عن أن المحذوف معلوم لا يخفى على أحد، فكان في حذفه حذفًا للفضول من الكلام، وهذا من البلاغة النبوية العالية.

والتقديم بسؤال نوح (عليه السلام) دونهم فضلاً عن تساوقه مع صور الحديث "يجيء نوح وأمته" فإن فيه تسجيلاً عليهم، وفضحًا لكذبهم، حيث إن سؤاله وإجابته ستكون أمامهم بدلالة واو المعيَّة، وهذا باعث لهم على أن يرتدعوا عن الكذب لكنهم يصرون عليه مما يدل على شدة جراءتهم على الباطل والكذب.

وبعد سؤال نوح (عليه السلام) يتوجه المولى – سبحانه – بالسؤال نفسه إلى قومه: هل بلَّغكم ؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي".

وفي توجيه السؤال إليهم بعد اعتراف نوح (عليه السلام) بالتبليغ دلالة على كمال العدل الإلهي، حيث لم يكتف المولى – سبحانه – بإقرار نوح بالتبليغ – وهو يعلم صدقه – وإنما أراد أن يقررهم أيضًا، وفي هذا إشارة إلى أنه لا تظلم في هذا اليوم نفس شيئًا، ولا ينتقص من حقولهم شيء، فحق الرد مكفول لقوم نوح (عليه السلام) رغم علمه – سبحانه – بأنهم سيكذبون لكنه لم يكتف بإقرار نوح (عليه السلام) وعلمه بكذبهم وإنما يتتبع القضية إلى آخرها ويطلب من نوح (عليه السلام) أن يأتي بشاهد يصدق ما قاله مما يدل على كمال العدل الإلهي.

والاستفهام في قوله: هل بلغكم ؟ الغرض منه التقرير أيضًا لإقامة الحجة عليهم، وفيه من الإيجاز ما في سؤال نوح (عليه السلام) وإجابته لنفس الغرض وهو ضيق المقام، وحذف الفضول من الكلام.

وإسناد القول إلى مجموعهم "فيقولون" للإيذان باشتراك الكل في الرد بالنفي، وهذا يدل على شمول الكذب لهم جميعًا مما يبالغ في حقارتهم، وعطف هذا

الفعل "يقولون" بإلغاء دليل على تأصُّل صفة الكذب فيهم حيث تعجَّلوا الإجابة دون أن يفكروا مما يدل على احترافهم الكذب وأن هذا هو دأبهم وديدنهم، وأن نفوسهم متوطِّنة عليه.

ومما يبالغ أيضًا في كذبهم وحقارتهم تأكيدهم النفي بالجملة "ما جاءنا من نبي" وهذه الجملة فضلاً عن تأكيدها لما قبلها لدلالتها على ما دلت عليه فهي مؤكدة بمن التي تأتي صلة مؤكدة لعدم مجيء نبي.

واصطفاء التعبير بلفظ نبي دون رسول وتنكيره لإفادة العموم، ولتأكيد عدم المجيء، مما يدل على كمال الاجتراء على الكذب.

ولا مراء في أن المتلقي عند معاودة النظر في إجابة نوح (عليه السلام) وإجابتهم ستتجلى له مفارقة عجيبة في التعبير: ففي إجابة نوح (عليه السلام) نجد أنه قد اكتفى بقوله: نعم، لأنه في موقف الواثق المطمئن لصحة جوابه، ولم يزد إلا النداء أي رب وهذا النداء هنا له دلالته في صدق نوح (عليه السلام) بخلاف جوابهم فلم يكتفوا بالنفي "لا"، وإنما أتبعوه بما يؤكد هذا النفي "ما جاءنا من نبي" حتى يروِّجوا لكذبهم علَّه ينطلق على المولى – سبحانه – مما يدل على شدة ضلالهم وكذبهم حتى بين يدي الله – تعالى – الذي يعلم السر وأخفى.

كما نلحظ أيضًا في إجابة نوح (عليه السلام) أنه لم يزد في الجواب على كلمة "نعم، أي رب" ومعناها: يا رب، وهي كلمة تظهر مدى اعتزاز نوح (عليه السلام) بربه، ومعرفته بما يتطلبه مقام الربوبية من صدق بخلاف إجابة أمته التي اختفى فيها هذا اللفظ، وفي هذا دلالة على شدة ضلالهم، وضعف موقفهم.

ولسائل أن يسأل: كيف يمكن التوفيق بين سؤالهم وردِّهم وبين قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة يس: (٦٥)].

والجواب: أن في القيامة مواطن متعددة، فمرة ينطقون ومرة يسكتون.[1] ولما قلبوا الحقيقة، ونفوا عدم التبليغ طلب المولى – سبحانه – من نوح (عليه السلام) من يشهد له، وذلك قوله (ﷺ) "فيقول لنوح: من يشهد لك ؟ فيقول: محمد (ﷺ) وأمته، فيشهد أنه قد بلَّغ".

ومما يلحظ في هذه الفقرة كما هو الملاحظ في الحديث من أوله كثرة استعمال الفاء للدلالة على سرعة تتابع الأحداث وتعاقبها.

والاستفهام هنا: من يشهد لك ؟ على حقيقته.

وقوله: "محمد" مبتدأ لخبر محذوف والتقدير: محمد (ﷺ) وأمته يشهدون لي، ففيه إيجاز بالحذف استدعاه المقام كسابقه وفي طلبه شهادة محمد (ﷺ) وأمته إقرار واعتراف بأفضليتهما وخيريتهما كما قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران: (١١٠)].

كما أن ضم أمة محمد (ﷺ) إلى نبيِّها لتكون أحد الشهود تشريف لهذه الأمة، وإعلاء لشأنها، وإظهار لعظم مكانتها في هذا اليوم العصيب، فنحمد الله – تعالى – أن جعلنا منها.

---

(١) ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح لسراج الدين الأنصاري الشافعي المعروف بابن الملقن (٧٢٣ – ٨٠٤هـ) (١٩/٣٠٠)، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، تقديم أ.د / أحمد معبد عبد الكريم، إصدارات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بقطر، وينظر: عمدة القاري: (١٢/٣٧٦).

وفي قوله (ﷺ) "فيشهد" التفاف[1] من المتكلم فنشهد إلى الغائب للفت النظر إلى عظمة هذه الشهادة، وبجانب العظمة يكون الاختصاص أيضًا، ولعمري إن شهادة محمد (ﷺ) وأمته في هذا لخليقة بأن يكون فاعلها أعظم العظماء. وقوله: "أنه قد بلَّغ" إقرار بتبليغ نوح (عليه السلام) قومه، وشهادة بذلك، وهذه الشهادة جاءت مؤكدة بأن وقد واسمية الجملة تأكيدًا لقيامه بمهمة التبليغ، وهذا التأكيد القوي قد اقتضاه المقام، إذ هو مقام تكذيب من قومه فاقتضى ذلك التأكيد للرد عليهم، ودحر افترائهم عن نوح (عليه السلام).

وبالتأمل في نَصِّ هذه الشهادة نجد أن الضمير العائد على نوح (عليه السلام) في هذه الجملة قد انحصر بين مؤكدين أن وقد مبالغة في تأكيد صدقه، وأدائه ما كلف به، كما يدل أيضًا على إحاطة الصدق به من كل الجوانب. كما أنها اشتملت أيضًا على الإيجاز بالحذف والتقدير: فيشهد أنه قد بلَّغ أمته ما أمرته به مناسبة للمقام أيضًا.

وهكذا امتزج نسيج الحديث من ألفاظ وجمل وتراكيب للقيام بالغرض المطلوب في أبهى صورة وأحسن معرض.

وقد ظهر الإيجاز سمة غالبة على سياق الحديث وكان ملائمًا للمقام وساعده على ذلك الربط بالفاء بين الجمل، وما قامت به من دور جعل الحديث من أوله إلى آخره كأنه جملة واحدة، وذلك لما في الفاء (من معنى السبب الذي يغني عن

---

(١) الالتفات: هو التعبير عن معنى بطريقة من الطرق الثلاثة: التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بآخر منها.

وسائل الربط الأخرى، ويجعل ما بعدها مع ما قبلها في حكم جملة واحدة) [1] مما جعل الحديث على كثرة تراكيبه كأنه جملة واحدة، هذا بالإضافة إلى بعض الألوان البلاغية الأخرى كالاستفهام والالتفات وغيرها.

وفي النهاية تبقى لي كلمة وهي أننا إذا ضممنا هذا الحديث إلى الحديث السابق فسنجد أن ثَم ارتباطًا وثيقًا بين الحديثين، ففي الحديث السابق عن الدجال يطالعنا قول الرسول (ﷺ) "لقد أنذر نوح قومه" وهنا هم يقولون: ما جاءنا من نبي، فكأن ما ورد في الحديث السابق يعد دليلاً آخر يؤكد كذبهم، وذلك بشهادة النبي (ﷺ) لنوح مرتين: مرة بين يدي أصحابه في الحديث السابق، ومرة بين يدي المولى – سبحانه – في هذا الحديث.

---

(١) شرح التصريح على التوضيح للشيخ / خالد الأزهري، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى الحلبي (١٣٩/٢).

المبحث الثاني
السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن إبراهيم (عليه السلام)

أولاً: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن إبراهيم (عليه السلام) في القيامة:

وقد جاء ذلك من خلال مشهدين لإبراهيم (عليه السلام) في القيامة.

المشهد الأول: مشهد الحشر وما سيكون الناس فيه من عرى واختصاص إبراهيم (عليه السلام) بأولية الكسوة، ويتضح ذلك من خلال الحديث الذي سنعرضه.

المشهد الثاني: من خلال عرض النبي (ﷺ) المواجهة التي ستقع بين إبراهيم (عليه السلام) وبين أبيه في القيامة وما سيحدث بينهما يومئذ مما سيقصه الحديث الثاني. وذلك على النحو التالي:

(الحديث الأول)

عن ابن عباس (رضي الله عنهما) عن النبي (ﷺ) قال: "إنكم محشورون حفاة عراة عزلا"، ثم قرأ: "كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين" وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإن أناسًا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي أصحابي، فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح: "وكنت عليهم شهيدًا مادمت فيهم ... إلى قوله الحكيم".(١)

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ صـ(٧٠٠)، حديث رقم (٣٣٤٩) وغرلا معناه: غير مختونين والمقصود بالعبد الصالح: عيسى ابن مريم (عليه السلام).

ومقام الحديث يحكي مشهدًا من مشاهد القيامة، وهو مشهد الحشر، والحال التي يكون عليها الناس يومئذ من التجرد الكامل من كل شيء كما ولدتهم أمهاتهم، وذكر خصوصية لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) في ذلك اليوم بأنه أول من يُكسى في هذا اليوم الفاضح، ثم يحكي الحديث بعد ذلك عن صنف من الناس يؤخذون ناحية النار وهذا الحوار الذي دار بين الرسول (ﷺ) وبين ربه (عز وجل) في شأنهم.

والغرض من الحديث إظهار بعض الأهوال العظام التي يتعرض لها الناس في هذا اليوم. وقد اتَّسم نظم التراكيب في الحديث بخصائص وفَّت بالدلالة على الغرض منه، وتجلَّى ذلك فيما يلي: لما كان مقام الحديث يحكي مشهدًا من مشاهد القيامة – كما ذكرت – فقد كثرت فيه الأساليب الخبرية، وهي متناسبة مع مقام الإخبار بما سيحدث في هذا اليوم.

فيبدأ الحديث بقوله (ﷺ) "إنكم محشورون يوم القيامة حفاة عراة غرلا" وهي جملة اسمية مؤكدة بـ (إن) لإفادة تأكيد مدلولها وهو الحشر على هذه الحالة التي وصفت في الحديث، وهذه الجملة آكد من (تحشرون أو يحشر الناس) لأنها أدل على إثبات هذا الوصف لهم في هذا اليوم، لأن الجملة الفعلية – كما يقول البلاغيون – يؤتى بها عند قصد مجرد الإخبار فإذا أريد التأكيد أتى بالجملة الاسمية. (١)

هذا فضلاً عما تفيده الجملة الاسمية من استمرارية هذا الوصف لهم معظم أوقات هذا اليوم.

---

(١) ينظر: حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص (٢٢٠/١)، مطبعة السعادة، مصر، ط٢، ١٣٤٢هـ بتصرف.

والسر في التأكيد هنا هو أنه إخبار عن شيء غيبي، قد تنكره النفوس أو تستغربه مما قد يحدث لها تردُّدًا في قبوله فاقتضى ذلك أن يأتيها الخبر مؤكَّدًا لإزالة هذا التردد وذاك الاستغراب.

والتعبير بصيغة المفعول "محشورون" دليل على أنهم يُفعل بهم ما يُفعل وهم لا حول لهم ولا قوة، حيث لا يملكون أن يغيِّروا مما يحدث شيئًا والأوصاف الثلاثة "حفاة عراة غرلا" منصوبة على الحال من الفاعل في محشورون للدلالة على الهيئة التي يكونون عليها في هذا اليوم.

وقد رتبت هذه الأوصاف ترتيبًا تصاعديًا دقيقًا قُدِّم فيه الأغرب فالأشد غرابة، حيث إن استرجاع ما قد قطع منهم في الاختتان أغرب من عريهم، وهو أغرب من عدم انتعالهم، ولا شك أن هذا التدرج في الأوصاف سرٌّ من أسرار البلاغة النبوية العالية، فالخطاب يومئذ للمؤمنين أصحاب النبي (ﷺ) والخبر به قد يكون غريبًا عليهم مفاجئً لهم وهم المشهورون بالحياء والستر فاقتضت البلاغة مخاطبتهم بهذا التدرج تهيئة لنفوسهم لتقبل الخبر.

ولما كان الخبر الذي ألقى غريبًا استدل عليه النبي (ﷺ) بما يؤيده من القرآن الكريم وهو قوله تعالى: "كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًا علينا إنا كنا فاعلين" تأكيدًا لحشرهم على هذه الصورة التي وردت في الحديث.

ولسائل أن يسأل: ما فائدة الغلفة يوم القيامة ؟ وقد أجاب على ذلك العيني بقوله: المقصود أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم ولا يفقد منهم شيء حتى العزلة تكون معهم.

ونقل عن ابن الجوزي أن لذة جماع الأقلف تزيد على لذة جماع المختون. [1] فيكون في إعادتها زيادة نعيم لهم.

---

(١) ينظر: عمدة القاري (١٢/٤٠٠).

وإذا كان الأمر كذلك فما العلة في الختان خاصة وأن ما تحت القلفة معفو عنه في الوضوء والصلاة.

والجواب: أن الختان سنَّة أبينا إبراهيم (عليه السلام).

وقوله: "وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم" أسلوب خبري أيضًا يفيد اختصاص سيدنا إبراهيم (عليه السلام) بأسبقية الكسوة على جميع الخلائق في هذا اليوم.

ومن براعة النظم النبوي هنا تقديم جملة "إنكم محشورون حفاة عراة غرلا" على جملة "وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم" فالجملة الثانية وثيقة الصلة بالتي قبلها، لكن اقتضت دقة الترتيب بين الجملة تقديم جملة "إنكم محشورون ...." لأنها أطْلعتنا على المظهر العام وتخيُّل ما فيه الناس من عُرى فاضح وهنا تتشوق النفوس وتشتد الحاجة إلى الكسوة، فإذا ما أخبر بعد ذلك بأن أول من يُكسى هو سيدنا إبرهيم (عليه السلام) كانت هذه الخصوصية موضع إعجاب واستحسان، وفي هذا إظهار لمزية الخصوصية التي يمتاز بها إبراهيم (عليه السلام).

وبالتأمل نجد اختلافًا وتفاوتًا في درجات التأكيد بين الجملتين حيث أكدت الجملة الأولى بإن واسمية الجملة "إنكم محشورون" واقتصر التأكيد في هذه الجملة على اسمية الجملة وناسب كل منهما مقامه فالجملة الأولى تتحدث عن شيء مخالف للعادة وهو الحشر حفاة عراة غرلا وهو مشهد غير مألوف فالجو لهذا جو استغراب فناسب ذلك أن يشتد التأكيد لإزالة هذا الاستغراب، أما الجملة الثانية عن أسبقية إبراهيم بالكسوة وليس فيها من الاستغراب ما في سابقتها فاقتضى ذلك أن تخف وطأة التأكيد فيها.

ولم تقتصر دقة النظم النبوي على الترتيب بين الجمل كما رأينا، وإنما كانت هناك دقة أيضًا على مستوى أجزاء الجملة الواحدة، وقد تجلى ذلك في ترتيب

أجزاء الجملة الخبرية "وأول ما يكسى يوم القيامة إبراهيم" حيث قدَّم الحكم وهو قوله "أول من يكسى"، وحدَّد الزمان الذي يكون فيه هذا الحكم (يوم القيامة) ثم أتبعه بالمحكوم عليه (إبراهيم) وهذا الترتيب له أسراره البلاغية، فالحديث عن خصوصية اختص بها إبراهيم (عليه السلام) وهذا يستدعي تقديم ما يدل عليها وهو قوله: "أول من يكسى"، ولما كان هذا الحكم من الممكن أن يحدث لبسًا حدد زمانه وهو يوم القيامة لإزالة هذا اللبس، وبعد معرفة الحكم وزمانه تشوقت النفس لمعرفة المحكوم عليه بهذا الحكم فكان ذكر (إبراهيم)، ولا شك أن إدراك الشيء بعد تشوف وتشوق إليه يكون أثبت في النفس، مما يؤكد هذه الخصوصية له (عليه السلام).

فكل لفظة في التركيب استدعت جارتها، وأخذت بحجزها، وتضامنت معها وصولاً إلى تحقيق المعنى في أبهى صورة.

وبناء الفعل (يُكسى) لغير الفاعل للتنبيه على أن المهم هو وقوع الكسوة ممن يملكها، لا تعيين الكاسِي، خاصة وأنه معلوم وهو الله وحده القادر على هذا الفعل في هذا الوقت، هذا فضلاً عما فيه من إشعار بعظمة هذه الكسوة. وبين "عراة" و"يكسى" طباق[1] يظهر أهمية هذه الخصوصية لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) في هذا اليوم العصيب.

---

(١) الطباق: هو الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة. ينظر: الإيضاح (٨/٦)، ت د/ خفاجي، دار الجيل، وهو هنا بين نوعين مختلفين بين الاسم (عراة)، والفعل (يكون).

ومن الألوان البلاغية البارزة هنا الوصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالية[١] حيث اتفقت الجملتان في الخبرية لفظًا ومعنى، ووجد الجامع وهو التقابل بين عراة ويكسى.

وللعلماء أقوال متعددة في سبب اختصاص سيدنا إبراهيم (عليه السلام) بهذه الخصوصية نذكر منها:

أنه ألقى في النار عريانًا أمام أعين الناس فجوزى بأن يكون أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة على رءوس الأشهاد.

وقيل: لأنه أول من لبس السراويل ولاسيما في الصلاة، فلما فعل ذلك جوزى بأن يكون أول من يستر يوم القيامة. [٢]

وقيل: أنه لم يكن في الأولين والآخرين عبد أخوف لله منه، فتعجل له كسوته أمانًا ليطمئن قلبه. [٣]

ولسيدنا إبراهيم (عليه السلام) أوليات كثيرة منها: ما ذكره ابن حجر أنه أول من أضاف الضيف، وقص الشارب، واختتن، ورأى الشيب وغير ذلك. [٤] لكن اختصاص أوليته بالكسوة يوم القيامة هنا لتناسبها مع مقام الحديث الذي يحكي ما سيكون عليه الناس في هذا اليوم من عرى بيانًا لأهمية هذه الخصوصية في هذا المقام.

---

(١) التوسط بين الكمالية وضابطه: أن تتحد الجملتان خبرًا أو إنشاءً لفظًا ومعنى أو معنى فقط.

(٢) ينظر: فتح الباري (٦/٣٩٠)، وعمدة القاري (١٢/٤٠١).

(٣) ينظر: التوضيح على الجامع الصغير (١٩/٣٧٠).

(٤) ينظر: فتح الباري (٦/٣٩٠).

ولا يلزم من خصوصية سيدنا إبراهيم (عليه السلام) بذلك تفضيله على نبينا محمد (ﷺ) (لأن المفضول قد يمتاز بشيء يخص به ولا يلزم منه الفضيلة المطلقة، ويمكن أن يقال: لا يدخل النبي (ﷺ) في ذلك على القول بأن المتكلم لا يدخل في عمومه خطابه). (١)

وهذا الرأي الأخير هو ما أميل إليه بدلالة مطلع الحديث "إنكم محشورون" وقال ابن علان: (قد جبر محمد (ﷺ) عن هذا السبق بكونه يكسى حلتين كما في حديث ذكره البيهقي)(٢)، وعلى هذا تكون له (ﷺ) خصوصية من جهة أخرى غير الجهة التي عليها إبراهيم (عليه السلام) ثم يحكي بقية الحديث حوارًا دار بين سيدنا محمد (ﷺ) وبين ربه في شأن صنف من أصحاب النبي (ﷺ) كان يظن إسلامهم فإذا بهم يؤخذون إلى النار، فيصيح النبي (ﷺ) أصحابي أصحابي فيخبره المولى – سبحانه – بأنهم لم يثبتوا على إيمانهم ولكنهم حرَّفوا وبدلوا فيسلم فيهم النبي (ﷺ) الأمر إلى الله – تعالى –.

وهذا الحوار كما هو واضح لا يتصل بموضوع البحث لذا آثرت ألا أتحدث عنه حتى لا يترهل البحث، ويدخل فيه ما ليس له به صلة.

وبالرجوع إلى ما ذكر في الحديث في الجانب الخاص بالحديث عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يمكن القول بأن الأسلوب الخبري وأسلوب التوكيد كانا المهيمنين على سياقه لتناسبهما مع المقام، واختلفت درجات التأكيد بين الجملتين كما ذكرت، وساعدهما على النهوض بأعباء المعنى بعض الصور الأخرى كالوصل والطباق وغيرها، فجاء الحديث متناسب الأجزاء، غاية في الإحكام والإتقان.

---

(١) السابق – الصفحة.

(٢) دليل الفالحين (٣٦٦/١).

وتبدو للباحث وجهة نظر متواضعة في علاقة ما ذكر عن إبراهيم (عليه السلام) في هذا الحديث وما ذكر عنه في القرآن الكريم، فالقرآن الكريم في حديثه عن إبراهيم (عليه السلام) يذكر أنه قد تعرَّض لفتن كثيرة في حياته أصابته بالخوف منها: فتنة إرسال الملائكة إليه، وتبشيرهم له بالولد وخوفه منهم كما ذكرت سورة الذاريات. وكذلك فتنته في أمره بذبح ولده الذي رزقه على كبر وما حدث في هذه القصة مما ذكرته سورة الصافات، ومنها فتنته في إلقائه في النار مما قصَّته سورة الأنبياء، وغير ذلك مما ذكره القرآن الكريم من مخاوف عديدة تعرَّض لها في الدنيا، فاجتازها بنجاح، فجاءت السنة النبوية وبينت في هذا الحديث أن الأمر في الآخرة على العكس فمنذ البداية وهو وقت الحشر تظهر كرامته (عليه السلام) وأمانه وتطمينه جراء صبره على المصاعب التي تعرَّض لها في دنياه، فالجزاء من جنس العمل، فإن كان قد خاف وابتلى في الدنيا كما ذكر القرآن الكريم فهو في مأمن في الآخرة كما وضَّح البيان النبوي. مما يظهر هذا التكامل بين القرآن الكريم وبين السنة النبوية المشرفة.

(الحديث الثاني)

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: "يلق إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرَّمت الجنة

على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار".[1]

ومقام الحديث يحكي مشهدًا آخر لإبراهيم (عليه السلام) مع أبيه في القيامة، مشهد تتداخل فيه العاطفة مع العدل مع القدرة الإلهية القاهرة مع الرحمة، حيث يلقى خليل الرحمن (عليه السلام) أباه الكافر فيجده في صورة مخزية، ويعاتبه عتابًا رقيقًا بعصيانه له وعدم طاعته، وتأخذه الشفقة على أبيه، فيحاول أن يشفع له، لكن العدالة الإلهية تأبى أن يدخل الكافر الجنة، مما أحزن إبراهيم (عليه السلام) وهنا تتدخل الرحمة الإلهية فيُمسخ والده ضبعًا، ويراه إبراهيم على غير صورته، ويلقى به في النار، وهذا لا شك أخف وطأة على نفس إبراهيم (عليه السلام) من أن يرى أباه على صورته المعروفة يقذف بها في النار. وسياق الحديث يحمل حوارًا دار أولاً بين إبراهيم (عليه السلام) وبين أبيه، ثم بينه وبين ربه (عز وجل).

والصورة المهيمنة على الموقف هنا هي صورة الاستفهام المتعدد المصدر الوارد على غير حقيقته.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء – باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، صـ(٧٠٠)، حديث رقم (٣٣٥٠)، والذيخ: ذكر الضباع، والغبرة: هي القترة، وقيل القترة: ما يغشى الوجه من الكرب، والغبرة: ما يعلوه من الغبار، وأحدهما حسي والآخر معنوي، وقيل: القترة شدة الغبرة بحيث يسود الوجه، وقيل: القترة: سواد الدخان، فتح الباري (٨/٥٠٠).

فالاستفهام الأول صادر من إبراهيم (عليه السلام) لأبيه: ألم أقل لك لا تعصيني ؟ وهو استفهام يشتم منه تخطئته في عدم استجابته لولده، والإنكار عليه، والتحسر، والإشفاق والخوف فهو كما نرى استفهام معبِّر مليء بالدلالات والإيحاءات.

وبالتأمل يتبين أن أداة الاستفهام دخلت على النفي، ومجيء الاستفهام على هذه الصورة يفيد التحقيق – كما ذكر الزمخشري[1]– كقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة القيامة: (٤٠)].

والاستفهام الثاني صادر من إبراهيم (عليه السلام) لربه وهو قوله: "فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ والغرض منه الاستعطاف والرجاء وإظهار ما هو فيه من شدة وحزن على والده.

والاستفهام الثالث موجه من المولى – سبحانه – لإبراهيم (عليه السلام): "ما تحت رجليك؟ والنكتة البلاغية وراء هذا الاستفهام هي لفت انتباهه والتخفيف عنه بإدراك رحمة الله – تعالى – له بعد أن كان يئس منها لما قيل له: إني حرَّمت الجنة على الكافرين.

فتعدَّد الاستفهام وتعددت دلالاته تناسبًا مع جو الحوار الذي بنى عليه الحديث وبجانب الاستفهام كانت أساليب بلاغية أخرى لا تقل عنه أهمية في الدلالة على المعنى منها: الإيجاز بالحذف وقد بدا ذلك في موضعين:

الموضع الأول: الإيجاز بحذف الشرط في قوله: فاليوم لا أعصيك، والفاء فيها دالة على كلام محذوف والتقدير: إن كنت عصيتك في الماضي فاليوم لا أعصيك،

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٦٢/١).

وهو حذف له دلالته وتناسقه مع المقام، فالمشهد أخروي والأهوال شديدة والنفوس مذهولة مرتعدة والصدور ضائقة فناسب الإيجاز بحذف الجملة "إن كنت عصيتك في الماضي".

كما ألمح في حذف هذه الجملة إعراضًا منه عما تتضمنه، ودعوة لنسيان ما كان منه.

وافتتاح الجملة "فاليوم لا أعصيك" بالفاء فضلاً عما تومئ إليه حذف فإن فيها إشعارًا بشدة الندم بعدما عاين الحقيقة، وعرف العاقبة المؤلمة لمخالفي الرسل، كما لا يخفى ما فيها من لهفة واستنجاد بإبراهيم (عليه السلام) لإغاثته مما هو فيه.

الموضع الثاني: حذف المضاف في قوله: "فأي خزي أخزى من أبي الأبعد" والتقدير: فأي خزي أخزى من خزي أبي الأبعد، وحذف المضاف هنا تطلبه ضيق المقام أيضًا كسابقه، كما أن فيه إظهارًا لشدة تأدب إبراهيم (عليه السلام) وخوفه على أبيه بتحاشي إضافة لفظ الخزي إليه، وليس هذا غريبًا على إبراهيم (عليه السلام) فهو من يضرب به المثل في الأدب مع الوالد حتى وإن كان كافرًا، وآيات سورة مريم (٤١ – ٤٨) خير شاهد على ذلك، فهي آيات تقطر أدبًا وحنانًا وعطفًا وخوفًا، ولا يتعارض مع ذلك وصف أبيه بالأبعد إذ معناها: البعيد من رحمة الله.

ومن الألوان البلاغية البارزة في الحديث الجناس المحرَّف[1] بين يَلقى في قوله في مطلع الحديث "يلقى إبراهيم أباه" ويُلقى في آخره "فيُلقى في النار" وما

---

(١) الجناس المحرف: أن يختلف اللفظان في هيئات الحروف ويتفقا في النوع والعدد والترتيب، وسمى "محرَّفًا" لانحراف هيئة أحد اللفظين عن هيئة الآخر". ينظر: المطول لسعد الدين التفتازاني، صـ(٤٤٧)، نشر المكتبة الأزهرية للتراث ١٣٣٠هـ.

أحدثه هذا الجناس من تناسق شكلي بين بداية الحديث ونهايته، مما يجعل الحديث كأنه كلمة واحدة.

ومن التراكيب الغنية بالألوان البلاغية في الحديث الجملة الحالية: "وعلى وجه آزر قترة وغبرة" حيث اشتملت على العديد من الصور البلاغية نذكر منها:

• المجاز المرسل(١)، وقد تجلى ذلك في التعبير بالوجه "وعلى وجه آزر"، والعلاقة الجزئية حيث عَبَّر بالوجه وأراد الجسم كله، وإنما خص الوجه لأنه أبرز ما تظهر عليه مثل هذه الصفات، كما أن الوجه هو أشرف الأعضاء الظاهرة في الإنسان وظهور الإهانة عليه مما يدل على المبالغة والقوة، مما جعل للمجاز هنا تأنقًا وتألقًا.

• من الصور التي اشتمل عليها التركيب أيضًا الكناية(٢)، فالجملة "وعلى وجه آزر قترة وغبرة" كناية عن صفة الذلة. وتبدو روعة الكناية هنا في تشخيصها وإبرازها لحالة الذلة التي يكون عليها آزر في هذا اليوم بسبب عصيانه مصحوبة بدليلها، مشفوعة ببرهانها وهذا مما يقوي المعنى ويؤكده، وهي كناية مركبة استغرقت التركيب كله.

• من الألوان البلاغية التي اشتمل عليها التركيب أيضًا: الإظهار في موطن الإضمار نطالع ذلك في قوله: "وعلى وجه آزر قترة وغبرة" فأظهر الاسم آزر

---

(١) المجاز المرسل هو: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي. ينظر: نظرات في علم البيان، د. محمد عبد الرحمن الكردي، صـ(٢٢٤)، مطبعة السعادة ١٩٨٣م.

(٢) الكناية: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ. ينظر: الإيضاح، ت د/ خفاجي (١٥٨/٥).

بعد أن كان قد ذكره في الجملة قبله "يلقى إبراهيم أباه آزر" فلم يقل وعلى وجهه قترة وغبرة ونكتة الإظهار هنا التنبيه على استحقاق ما يعقبه من أوصاف، والإشارة إلى أنه هو السبب فيها.

كذلك لم يقل النبي (ﷺ) وعلى وجه أبيه تحاشيًا من إضافته لإبراهيم (عليه السلام) وهو في هذا الموقف المخزي حيث لا يُسَرُّ إبراهيم بأن يكون هذا هو أبوه فالتركيب – كما هو واضح – ثري بالألوان البلاغية، والنكات البلاغية لا تتزاحم.

ومن دقائق النظم في الحديث ما نراه من فرق في التعبير بين قوله: "فيقول الله – تعالى – إني حرَّمت الجنة على الكافرين، وبين قوله: ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ والفرق بينهما يظهر من عدة وجوه نذكر منها:

أنه عطف في الجملة الأولى بالفاء وفي الثانية بثم، والعطف بثم يصور لنا الفترة التي كانت بين الرد الإلهي الموحي برفض شفاعته لوالده، وبين ما أتيح من حلٍّ في تصويره ضبعًا رأفة بإبراهيم (عليه السلام)، وكأن هذه الفترة كانت ترويضًا لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) ليقبل ما سيُفعل بوالده من مسخه ضبعًا، فهذا لا شك أهون عليه من دخوله على النار صورته المعهودة.

كذلك نرى في الجملة الأولى أن القول جاء عامًا: إني حرَّمت الجنة على الكافرين، فهذا القول وإن كان في الحقيقة موجه إلى إبراهيم (عليه السلام) إلا أنه لم يوجه له مباشرة بخلاف الجملة الثانية فقد وُجِّهت إليه مباشرة: يا إبراهيم، ما تحت رجليك ؟ وهذه دلالة قوية على شدة حب المولى – سبحانه – لإبراهيم (عليه السلام) لأن المقول لما كان قاسيًا شديد الوقع على النفس في الجملة الأولى لم يرد الله – تعالى – توجيهه إليه بطريق مباشر، ولما كانت انفراجة وسعة بعض الشيء في الجملة الثانية وجه القول إليه مباشر، ولذلك تناسب معها أن تُستهل

بالنداء – يا إبراهيم – وما يوحي به من تهدئه لروعة لما قد أصابه من حزن على والده، وهو ما لم نجده في الجملة الأولى.

ومن بلاغة اللفظة المفردة في الحديث افتتاحه بصيغة اللقاء "يلقى إبراهيم أباه" لما تدل عليه الصيغة من أنه لقاء على غير موعد، وغير مُرتَّب له كما في قوله تعالى " ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ [سورة البقرة: (١٤)].

والتعبير به مضارعًا استحضار للصورة حتى ليخيَّل للسامعين أنهم يشاهدون هذا المشهد الآن، وهذا نوع من أنواع الزجر لأن عرض المشهد أمام العيون لتراه يجعل كل من يراه يعلم يقينًا أنه لا ينفعه إلا الانقياد والطاعة، والتحلى بالإيمان الذي هو السبل إلى الجنة، والابتعاد عن الكفر الموصل إلى النار.

وقُدم إبراهيم (عليه السلام) على أبيه، وجيء به في موضع الفاعل لأفضليته عليه.

ومن براعة النظم في الحديث أيضًا ما نراه من الإتيان بحرف تكون له خصوصية في الدلالة على المعنى المراد، أو بحرف دون آخر لأنه أوفى بالدلالة منه. يتجلى ذلك عند النظر في قوله (ﷺ): "وعلى وجه آزر قترة وغبرة" حيث عبَّر بالحرف (على) دون (في) لأن ما عبِّر به دالٌّ على تغطية القترة والغبرة جميع الوجه، ففي أي مكان في الوجه ترى أثر الذلة واضحًا جليًّا بخلاف ما لو عُبِّر بـ (في) فلربما يفهم أن الذلة مخصوصة بجزء معين في الوجه دون بقية الوجه مما يظهر مزيّة التعبير بالحرف (على) في هذا الموضع.

ومن اللطائف التي اشتمل عليها الحديث اختيار الضبع ليكون آزر على صورته دون غيره من سائر الحيوانات، ولعلَّ ذلك لأن (الضبع من أحمق الحيوانات، وأزر كان من أحمق البشر، لأنه بعد أن ظهر له من ولده من الآيات البينات أصرَّ على الكفر حتى مات، واقتصر في مسخه على هذا الحيوان لأنه وسط في التشويه بالنسبة إلى ما دونه كالكلب والخنزير وإلى ما فوقه كالأسد

مثلاً، ولأن إبراهيم بالغ في الخضوع له وخفض الجناح فأبى واستكبر وأصرَّ على الكفر فعومل بصفة الذل يوم القيامة، ولأن للضبع عوجًا فأشير إلى أن آزر لم يستقم فيؤمن بل استمر على عوجه في الدين).[1] فكان اختيار الضبع مناسبًا لما كان عليه أشد المناسبة.

وبمعاودة التأمل في الحديث يُلحظ اختلاط الجمل الخبرية بالجمل الإنشائية وكان كل منها ملائمًا لمقامه وسياقه مما جعل الحديث غاية في البلاغة والفصاحة، حيث أبرز هذا المشهد في صورة رائعة لا تجعل متلقيها في شوق إلى المزيد، وكان لأسلوب الاستفهام وما يحدثه في التركيب – على حد تعبير أستاذنا الدكتور / صباح دراز – (ما شبه التيار الكهربي تزيده الكلمات والحروف وتكرار الاستفهام أحيانًا توهجًا وتأججًا حتى يصل إلى مدى يناسب الموقف وحال المخاطب والنسق الخاص والسياق العام) [2]، فكان لأسلوب الاستفهام الهيمنة على معظم أجزاء الحديث. وساعده على إبراز المعنى بعض الألوان البلاغية الأخرى كالإيجاز بالحذف والكناية والجناس وغيرها، بالإضافة إلى الدقة في استعمال المفردات والحروف، وقد ظهر ذلك جليًا أثناء التحليل.

بقي أن نشير إلى علاقة ما ورد في هذا الحديث الشريف وما ورد في القرآن الكريم عن إبراهيم (عليه السلام) مع أبيه، فقد ذكر القرآن الكريم ما حدث بين إبراهيم (عليه السلام) وبين أبيه في الدنيا من دعوة برفق ولين، ومجادلته له بالتي هي أحسن

---

(١) فتح الباري (٨/٥٠٠).

(٢) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د/ صباح عبيد دراز، صـ(١٢٦)، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

لكنه ظل سادرًا في غيه، منغمسًا في الضلال متوعدًا إبراهيم (عليه السلام) "لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا"، ولم يتعرض القرآن الكريم لما سيحدث بينهما في الآخرة، فجاءت السنة النبوية المشرفة وأظهرت نتيجة هذا الصدود، وذاك الإعراض من خلال هذه المواجهة التي ستحدث مع إبراهيم (عليه السلام) وأبيه في الآخرة، وكأن ما سيحدث بينهما في الآخرة هو تأكيد لقوله له في الدنيا: "يا أبت إني أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا" مما يدل على دور السنة في تأكيدها وبيانها لما ورد في القرآن الكريم، ومنزلتها منه.

ثانيًا: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن إبراهيم (عليه السلام) في مقام الصدق:

من يتأمل حديث القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يجد أشياءً يوهم ظاهرها الكذب ولكنها عند التحقق يتبين أنها ليست كذلك، وذلك كقوله لقومه حين طلبوا منه الخروج معهم ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [سورة الصافات، (٨٩)] وقوله حين سأله قومه عن تكسير الأصنام ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: (٦٣)].

فجاءت السنة النبوية مؤكدة صدق إبراهيم (عليه السلام) وذكرت إجمالاً الموقفين السابقين الواردين في القرآن الكريم، وأضافت موقفًا آخر لم يذكره القرآن الكريم، وهي قصة حدثت لإبراهيم (عليه السلام) وزوجه سارة مع جبار من الجبابرة، وما حدث في هذه القصة مما نطالعه في هذا الحديث، مما يؤكد صدق إبراهيم (عليه السلام) وينفي عنه شائبة الكذب. ويتضح ذلك من خلال هذا الحديث:

(نصّ الحديث)

عن أبي هريرة (ﷺ) قال[1]: "لم يكذب إبراهيم (عليه السلام) إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله (عز وجل) قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه ؟ فقال: أختي، فأتى سارة، قال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرّك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت فأطلق، فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم، قالت: رد الله كيد الكافر في نحره وأخدم هاجر".[2]

---

(١) أخرج الإمام البخاري (رحمه الله) هذا الحديث بطريقين: الأول: عن سعيد بن تَليد عن عبد الله بن وهب المصري عن جرير بن حازم عن أيوب السختياني عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة، والثاني عن محمد بن محبوب عن حماد بن زيد عن أيوب إلى آخره، وهذا الطريق غير مرفوع، والحديث – كما ذكر العيني – مرفوع في الأصل كما في رواية جرير بن حازم، وذكر أيضًا أن ابن سيرين كان غالبًا لا يصرح برفع كثير من حديثه. ينظر: عمدة القاري (٤٠٧/١٢).

(٢) صحيح البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب قوله تعالى: "﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ ، صـ(٧٠١)، حديث رقم (٣٣٥٨)، ومهيم: استفهام معناه ما الخبر ؟

والغرض من الحديث إثبات صدق سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ونفي الكذب عنه ومقام الحديث يحكي قصة حدثت لإبراهيم (عليه السلام) وزوجه سارة مع جبار من الجبابرة، وكيف أن الله – سبحانه – قد نجاهما بقدرته من كيد هذا الجبار وعداوته، ولما كان المقام كذلك اقتضت البلاغة النبوية أن يكون الطابع الخبري هو الغالب على الأسلوب تناسبًا مع مقام الحكاية الذي يقرر حقائق حدثت لإبراهيم (عليه السلام) وبجانب أسلوب الخبر اشتمل الحديث على فيض من الألوان البلاغية التي تتضمن أسرارًا عالية ساعدت على إيضاح المعنى وصولاً إلى الغرض. فبدأ الحديث بقوله: "لم يكذب إبراهيم (عليه السلام) إلا ثلاث كذبات"[1] وهي

(١) للعلماء في تأول هذه الكذبات أقوال كثيرة تنفي الكذب المحض عنه (عليه السلام) منها: أن إطلاق الكذب على الأمور الثلاثة لكونه قال قولاً يعتقده السامع كذبًا لكنه إذا حقق لم يكن كذبًا لأنه من باب المعاريض المحتملة للوجهين فليس بكذب محض، فقوله: "إني سقيم" يحتمل أن يكون أراد أني سقيم أي سأسقم، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيرًا، ويحتمل أنه أراد أني سقيم بما قدر عليَّ من الموت، أو سقيم الحجة على الخروج معكم، وقوله: "بل فعله كبيرهم هذا" قال القرطبي: هذا قاله تمهيدًا للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة وقطعًا لقوم في قولهم: إنها تنفع وتضر وهذا الاستدلال يتجوز فيه في الشرط المتصل، ولهذا أردف قوله "بل فعله كبيرهم هذا" بقوله: "فاسألوهم إن كانوا ينطقون"، قال ابن قتيبة معناه: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا، فالحاصل أنه مشترط بقوله: "إن كانوا ينطقون" أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب ... وقوله: "هذه أختي" يعتذر عنه بأن مراده أنها أخته في الإسلام، وأُوِّل كذلك بأنه كذب بالنسبة إلى فهم السامعين، أما في نفس الأمر فلا. ينظر: فتح الباري (٣٩١/٦، ٣٩٢)، وعمدة القاري (٤٠٧/١٢)، ذكر ابن علان: "أنها ليست معاصي لكنها لما كانت بصورة الكذب سماها كذبًا وعدَّها ذنبًا =

جملة خبرية جاءت في سياق أسلوب القصر بالنفي والاستثناء تأكيدًا لصدق إبراهيم (عليه السلام) وأنه لم يكذب قط، حيث جاء الإخبار بصدقه في أسلوب يوهم ظاهره الكذب، وحصره في ثلاث، ولكن عند تبين حقيقة هذه الثلاث يتضح أنها ليست بكذب فيكون قد انتفى عنه الكذب بالكلية، ويمكن أن يدخل هذا أيضًا ضمن تأكيد المدح بما يشبه الذم لتأكيد صدق إبراهيم (عليه السلام).

يقول الإمام النووي (رحمه الله) (الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصودٍ محمودٍ يمكن تحصيله بغير الكذب: يحرم الكذب فيه، وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب.

ثم إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحًا كان الكذب مباحًا، وإن كان واجبًا كان الكذب واجبًا، فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله، أو أخذ مال وأخفى ماله، وسئل إنسان عنه، وجب الكذب بإخفائه، وكذا لو كان عنده وديعة، وأراد ظالم أخذها، وجب الكذب بإخفائها، والأحوط في هذا كله أن يورِّي، ومعنى التورية: أن يقصد بعبارته مقصودًا صحيحًا ليس هو كاذبًا بالنسبة إليه وإن كان كاذبًا في ظاهر اللفظ، وبالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب، ولو ترك التورية وأطلق عبارة الكذب، فليس بحرام في هذا الحال). [1] وقد أخذ سيدنا إبراهيم (عليه السلام) بالأحوط كما سيتضح – إن شاء الله تعالى – من خلال التحليل.

=

أشفق منه على نفسه، وذلك لأن من كان أعرف بالله – تعالى – وأقرب منه منزلة كان أعظم خطورًا وأشد خشية". دليل الفالحين (٥٩٠/٤).

(١) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين – للإمام النووي – كتاب الأمور المنهي عنها – باب بيان ما يجوز من الكذب، مراجعة / محمد محمد تامر، صـ(٣١٦)، دار التقوى، شبرا الخيمة.

وتآزر مع القصر في تأكيد صدق سيدنا إبراهيم (عليه السلام) الجمع مع التقسيم[1]، حيث جمع في قوله: "لم يكذب إبراهيم (عليه السلام) إلا ثلاث كذبات" ثم قسَّم بعد ذلك في بقية الحديث، فاستولت هذه الصورة على الحديث بأكمله مما جعل المعنى يأتي في صورتين مجملة ومفصلة وهذا لا شك يجعل المعنى أثبت في الذهن وأقوى في الإدراك. وفيه أيضًا إيضاح بعد إبهام تضمن تشويقًا، وإثارة انتباه وهو ما يرجع على المعنى بالتأكيد والمبالغة.

وقوله: "ثنتين منهن في ذات الله (عز وجل) قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا" خصَّ هاتين بأنهن في ذات الله (عز وجل) لأن قصة سارة وإن كانت أيضًا في ذات الله – لأنها سبب لدفع كافر ظالم عن مواقعة فاحشة عظيمة – لكنها تضمنت حظًّا لنفسه ونفعًا له بخلاف الثنتين الأولين فإنهما في ذات الله محضًا، ولذلك وردت بعض الروايات "إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات كل ذلك في ذات الله".[2]

وقوله: "بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة".

واللون البلاغي البارز في هذا التركيب هو التنكير، حيث نكَّر "يوم" و"جبار" وتنكيرهما لعدم تعلق فائدة بتعيينهما، إذ المهم هو الإخبار بأن هذه القصة حدثت لهما في يوم من الأيام مع جبار من الجبابرة.

وأهم ما يلفت النظر في هذا التركيب هو استعمال "إذ" الدالة على المفاجأة لتدل على أنهم فوجئوا بهذا الجبار ولو كانوا يعرفون أنهم سيمرون عليه لما

---

(١) الجمع مع التقسيم: هو جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه أو العكس. ينظر: شرح السعد ضمن شروح التلخيص (٣٣٩/٤).

(٢) ينظر: فتح الباري (٣٩٢/٦)، وعمدة القاري (٤٠٨/١٢).

جاءوا، ولذلك تناسب أن يعبر بصيغة الإتيان "أتى" وما تدل عليه من سهولة في المجيء، أي أنهم كانوا يسيرون سيرًا سهلاً لا يتوقعون أن يقع لهم مكروه.

ومن الألوان البلاغية التي كان لها دور في أداء المعنى التأكيد، ويطالعنا ذلك في قوله: "فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس" حيث تقوى المقول بأكثر من مؤكد "إن" و"ها" التنبيه "ههنا" تأكيدًا لوجود رجل معه امرأة على الوصف المذكور، وأيضًا للمبالغة في لفت نظر الجبار وتنشيطه ليصغى إلى ما سيلقى إليه، مما يدل على خبث المبلِّغ فضلاً عن المبلَّغ. (١)

وبناء الفعل "قيل" للمفعول له غرض بلاغي وهو إرادة تحقق الوقوع، كما أن إضمار الفاعل يتضمن تحقيرًا له واستهانة به بتجنب ذكره، كما أنه لا يتعلق بذكره غرض، فالعبرة بأن الملك قد بُلِّغ، وليس يهم معرفة المبلِّغ، وهذه سمة من سمات القصص عامة حيث لا يذكر في الكلام إلا ما يتعلق بذكره فائدة، ولذلك أيضًا جاء رجل وامرأة نكرتين لعدم تعلق فائدة بتعيينهما، فالمهم أن يكون هناك رجل وامرأة على هذا الوصف، ولا يهم من هم.

ولم تقتصر الدقة في الحديث الشريف على اللفظة المفردة وإنما تعدتها إلى الحروف. ويظهر ذلك في كثرة استعمال الفاء للربط بين الجمل في قوله: "فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه ؟ فقال أختي" وتكرار الفاء هنا مراعاة لترتب الأحداث وتتابعها وتعاقبها، وفيها أيضًا إشارة إلى شدة خبث هذا الجبار

---

(١) ذكر ابن حجر أن قائل ذلك رجل كان إبراهيم يشتري منه القمح فنم عليه عند الملك، وذكر أن من جملة ما قاله للملك إني رأيتها تطحن، وهذا هو السبب في إعطاء الملك لها هاجر في آخر الأمر وقال: إن هذه لا تصلح أن تخدم نفسها. فتح الباري (٣٩٢/٦).

حتى إنه بمجرد أنه أخبر بأن هاهنا رجلاً معه امرأة على الوصف المذكور بادر بالإرسال إلى إبراهيم (عليه السلام) وسؤاله عنها.

والاستفهام في قوله: من هذه ؟ استفهام مصور لشدة فسق هذا الجبار، حيث لم يسأله عن أي شيء غيرها، كأن يعرف حقيقته هو أولاً، ومن أين أتى وهكذا، مما يؤكد شدة فسقه، والاستفهام هنا على حقيقته.

ومن وجوه البلاغة التي اشتمل عليها التركيب أيضًا الإيجاز بالحذف، وقد بدا ذلك في ثلاثة مواضع:

الأول: حذف الجملة في قوله: "فأرسل إليه فسأله عنها" والتقدير: فأرسل إليه فأتاه فسأله عنها، وحذف الجمل هذا شائع في الأسلوب القصصي، حيث لا يذكر إلا ما يحقق الهدف، ويتعلق بذكره غرض.

الثاني: حذف المشار إليه في السؤال: من هذه ؟ والتقدير: من هذه المرأة ؟ وفي هذا دلالة على تعجله معرفة حقيقتها مما يشير إلى شدة خبثه.

الثالث: حذف المسند إليه في إجابة إبراهيم (عليه السلام) على السؤال حيث قال: أختي، والتقدير: هذه أختي، والسر البلاغي للحذف هنا هو ضيق صدر إبراهيم (عليه السلام) بالسؤال، كما يلمح من هذا الحذف أيضًا الإشارة إلى أنه يجيب من أقصر طريق إظهارًا لشدة خوفه على زوجه من أن يصل إليها هذا الظالم وتنطوي إجابة إبراهيم (عليه السلام) "أختي"[1] على لون بلاغي له أثر جليل في تثبيت المعاني

---

(١) قيل إن السبب الذي حمل إبراهيم (عليه السلام) على هذه الإجابة مع أن الظالم يريد اغتصابها على نفسها أختًا كانت أو زوجة هو أنه كان من دين ذلك الملك ألا يتعرض إلا لذوات الأزواج فأراد إبراهيم دفع أعظم الضررين بارتكاب أخفهما، وذلك أن اغتصاب الملك إياها واقع لا محالة، لكن إذا علم أن لها زوجًا في الحياة حملته الغيرة على قتله وإعدامه أو حبسه وإضراره، بخلاف ما إذا علم أن لها أخًا فإن الغيرة حينئذ تكون من قِبَل الأخ =

وتمكينها وهو التورية.[1]

فالمعنى القريب المتبادر إلى الذهن هنا أنها أخته من النسب، وهو غير مراد، والمعنى البعيد أنها أخته في العقيدة والإسلام وهو المراد. وهي توريـــة مجـــردة حيث لم تقترن بما يلائم كلا المعنيين.

وتبدو روعة التورية هنا في تخليصها لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) من شدته، وذلـــك بما أحدثته من إخفاءٍ لأمر سارة، ومحاولة كف الشر عنها.

وهذا الموقف الذي حدث لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) شبيه بما حدث لسيدنا أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) في الهجرة حين سئل عن النبي (ﷺ) فقال: هاد يهـــديني الـــسبيل، والمعنى القريب المتبادر لكلمة "هاد" أنه دليل يرشده في السفر، والمعنى البعيـــد المراد أنه هاد يهديه إلى الإسلام.

مما يظهر عظمة التورية في مثل هذه المواقف.

وبعد أن ينتهي حواره مع الجبار ينتقل الحديث ليقص ما كان مـــن إبـــراهيم (عليه السلام) مع زوجه بعد هذا الحوار يبين ذلك قوله: "فأتى سارة، قال يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذيبني".

=

خاصة لا من قِبَل الملك فلا يبالي به، وقيل: أراد إن علم أنك امرأتي ألزمني بـــالطلاق. فتح الباري (٦/٣٩٣).

(١) حقيقة التورية: أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد ويراد البعيد، وتسمى الإيهام. ينظر: شروح التلخيص (٤/٣٢٣).

وافتتاح الكلام بالفاء "فأتى" يدل على شدة خوف إبراهيم (عليه السلام) على زوجه حتى أنه بمجرد خروجه من عند الجبار بادر بالإسراع إلى سارة لتأخذ الحيطة وتحافظ على نفسها وزوجها.

ولا يخلو هذا التركيب من ألوان بلاغية نذكر منها: القصر عن طريق النفي والاستثناء "ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك" قصر صفة على موصوف.

والسر البلاغي للقصر هو تأكيد صدقه فيما أخبره من أنها أخته، وإظهار ذلك لزوجه حتى يحملها على الاقتناع بما سيخبرها به وعدم تكذيبه، ولذلك تناسب معه النداء "يا سارة" تحبيبًا وترغيبًا لها، وترويضًا حتى تستجيب لما يطلبه منها.

وفي هذا إشارة واضحة لقوة إيمان سارة، وأنها ليس من السهل أن تقول غير الحقيقة، ولذلك كان اختيار أسلوب القصر مقدمة لإقناعها على درجة عالية من الدقة والبلاغة لما يحتله من مرتبة عالية بين المؤكدات إذ هو يشتمل على جملتين في جملة واحدة، يقول أستاذنا الدكتور/ صباح دراز: "ومن الواضح أننا لو رتبنا أساليب التوكيد وأدواته ترتيبًا تصاعديًا حسب قوة التأكيد لكان القصر قمة وغاية، وذلك أنه تأكيد فوق تأكيد، لأنه يشتمل على جملتين، فهو تركيز شديد في الأسلوب".(١)

وأل في الأرض للعهد، والمقصود الأرض التي وقعت فيها هذه الحادثة وليست لاستغراق الجنس حيث إن لوطًا كان من المؤمنين معه بدليل قوله تعالى: "فآمن له لوط".(٢)

---

(١) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د/ صباح دراز، صـ(٩)، ط١، مطبعة الأمانة.

(٢) ينظر: فتح الباري (٣٩٣/٦).

والتعريف بالإشارة في قوله "إن هذا سألني" لغرض التحقير والتقليل من شأنه.

وحذف متعلق السؤال لإظهار شدة خوفه عليها وستره لها، والتقدير: إن هذا سألني عنك، وهذه دقة عالية في الأسلوب. والنهي "فلا تكذبيني" قد خرج عن حقيقته من (طلب الكف عن الفعل) [1] إلى النصح والإرشاد.

ثم يتطرق الحديث بعد ذلك لسرد ما حدث من هذا الجبار مع سارة وحفظ العناية الإلهية لها ولزوجها، وذلك قوله: "فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ، فقال: ادعي الله ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق، ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله ولا أضرك، فدعت فأُطلق" ومن أهم ما يلفت النظر أيضًا في هذه الفقرة ما نراه من سرعة إيقاع الأحداث وتتابعها، وهذا ندركه من خلال كثرة استعمال الفاء العاطفة.

وبناء الفعلين (أُخذ وأُطلق) للمفعول، وتكرارهما للإشعار بشدة الأخذ وعظمة الإطلاق.

وعطف الفعل (أُخذ) بالفاء دليل قوي على تبرئة سارة من أن يكون قد حدث لها أي إيذاء من هذا الفاسق، لما تدل عليه الفاء من تعقيب يشير إلى أنه بمجرد أنه هَمَّ أن يمد يده إليها حدث له ما حدث.

ونظير ذلك عطف الفعل (أُطلق) بالفاء أيضًا إشارة إلى سرعة استجابة المولى– سبحانه – لدعائها مما يدل على شدة قربها من ربها، ومكانتها عنده، كما أنه دالٌّ أيضًا على رحمة الله – تعالى – بإبراهيم (عليه السلام) فبمجرد أن دعت

---

(١) الإتقان للسيوطي (٨٩٣/٢)، ت د/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق ط٤، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

كانت الإجابة حتى لا تطول مدة مكثها مع هذا الظالم فيشق ذلك على إبراهيم (عليه السلام) مما يدل على تأنق اختيار الفاء في الموضعين.

ومما اشتملت عليه الفقرة أيضًا الإيجاز بحذف جملة – فأتت إليه – بعد قوله: "فأرسل إليها" تناسبًا مع مقام القصص.

وفي نهاية هذه المقابلة يطالعنا لون بديعي معجب وهو المقابلة في قول الجبار بعد أن رأى الحقيقة، وعاين القدرة الإلهية القاهرة "إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان" حيث قابل بين (لم تأتوني وأتيتموني) وبين (إنسان وشيطان) وقد أبرزت هذه المقابلة مدى الدهشة والاستغراب التي أصابت الجبار بعد أن عاين ما حدث، كما أنها أيضًا أظهرت مدى العجز والهزيمة التي مُنِيَ بها هذا الجبار، خاصة وأن المقابلة – كما يقول الأستاذ الشايب: (نوع من التحدي بين المعاني، والمنافسة في الظهور وهذه قوة للمعاني) [1]، وبهذا تألقت المقابلة في إبراز حالة الجبار والدلالة عليها وتأكيدها.

ولا يخفى على ذي نظر اشتمال الجملتين المتقابلتين على التأكيد، وذلك من شأنه أن يحدو المتلقي إلى التأمل وإنعام النظر، مما يجعله يتساءل: أكانت الجملتان على نسق واحد في التأكيد أم أن بينهما تفاوتًا بحيث يبدو التأكيد في إحداهما أقوى منه في الأخرى ؟

ولا ريب في أن المتلقي عند معاودة النظر ستتراءى له مفارقة في التعبير بينهما: ففي الجملة الأولى كان التأكيد بإن (إنكم لم تأتوني بإنسان) وفي الجملة الثانية كان التأكيد بالقصر عن طريق إنما "إنما أتيتموني بشيطان"، والتأكيد عن

---

(١) الأسلوب، أ/ أحمد الشايب، صـ(١٩٧)، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.

طريق القصر أقوى كما سبق أن ذكرت لأنه تأكيد فوق تأكيد، وذلك باشتماله على جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية، وقوة التأكيد في الجملة الثانية متناسبة مع غرابة مضمونها، وهو إثبات أن سارة من جنس الشياطين وليست من الجنس البشري، بخلاف الجملة الأولى التي تأتي لتأكيد نفي أنها من البشر فقط.

ولذلك تناسب أن يعبر في الجملة الثانية بالفعل الماضي "أتيتموني" لإفادة تحقق الفعل، مما ساعد على أن يصل التأكيد في الجملة الثانية درجة لم يصلها في الجملة الأولى، وإن كان الموضعان يشتملان عليه.

وفصلت الجملة الثانية عن الأولى للاستئناف البياني، حيث إن الجملة الأولى أثارت سؤالاً مفاده: إذا لم نأتك بإنسان فمن تكون هذه ؟ فجاءت الجملة الثانية جوابًا عن هذا السؤال، ففصلت عنها كما يفصل الجواب عن السؤال.

وتكمن أبلغية الفصل هنا بتقدير السؤال في المبالغة في إثبات صفة الشيطانية لسارة مباشرة، كما لا يخفى ما فيه من إيجاز واختصار بتكثير المعنى وتقليل اللفظ، وصولاً إلى المعنى من أقرب طريق، وهذه سمة من سمات البيان النبوي في الحديث.

وكما تأنق الفصل فيما سبق كان لمقابله وهو الوصل تأنق أيضًا في قولها لإبراهيم (عليه السلام) حين سألها عما حدث بقوله "مهيم ؟"[1] ومعناها: ما الخبر، والاستفهام فيها على حقيقته، فأخبرته: "رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر" حيث وصلت بين الجملتين "رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره" وهو مثل تقوله العرب لمن أراد أمرًا باطلاً، فلم يصل إليه، وبين جملة "وأخدم

---

(١) قيل: إن إبراهيم (عليه السلام) أول من قال هذه الكلمة. ينظر: عمدة القاري (٤٠٩/١٢).

هاجر" للتوسط بين الكمالين حيث اتفقت الجملتان في الخبرية لفظًا ومعنى، ووجد الجامع بينهما وهو اتفاق الجملتين في الماضوية. وتتبدى بلاغة الوصل في دلالته على أن عناية الله – تعالى – لسارة لم تقتصر على رد كيد الكافر، وإنما تعدتها إلى الامتنان عليها بهاجر لتكون خادمة لها.

وتقدير فاعل أخدم يمكن أن يكون "الله" – تعالى – وهو الراجح عندي لمناسبة ما عليه سارة من إيمان قوي بالله – تعالى – وحينئذ سيكون الكلام على حقيقته، ويمكن تقديره على أنه الجبار. ويكون التقدير: وأخدمني الكافر هاجر، فيكون من المجاز العقلي الذي علاقته السببية، وفيه إشارة إلى قوة السبب، وإخفاؤها الفاعل على هذا التقدير حتى لا يكون بينها وبين هذا الكافر أي اتصال ولو في اللفظ.

وبمعاودة التأمل في الحديث من أوله نجد أن كل ما فيه من حروف ومفردات وتراكيب قد تكاتفت جميعها لخدمة الغرض المقصود منه وهو التأكيد على صدق سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ويمكن إجمال أهم المظاهر البلاغية التي وردت في الحديث فيما يلي:

١- غلبة الطابع الخبري على معظم تراكيب الحديث تناسبًا مع مقام الحكاية.

٢- الدقة في اختيار أسلوب الجمع والتقسيم كظاهرة اشتملت على الحديث من بدايته إلى نهايته، وما يدل عليه ذلك من تأكيد للمعنى، ولكن يلحظ أنه لم يفصِّل في الكذبتين الأولين، وهما قوله "إني سقيم" وقوله "بل فعله كبيرهم هذا" حيث لم يذكر متى قال ذلك، والسبب الذي حمله على أن يقوله وغير ذلك من ملابساتهما بخلاف الثالثة ففصَّلها بمعظم أحداثها، ولعل ذلك لورود الأولين في القرآن الكريم الأولى في سورة الصافات: (٨٩)، والثانية في سورة الأنبياء: (٦٣) فليستا بحاجة إلى تفصيل، بخلاف الثالثة فلم يرد لها ذكر في القرآن الكريم فاستدعى ذلك أن

يذكرها النبي (ﷺ) بتمامها، وهذا مما يوضح علاقة السنة النبوية بالقرآن الكريم، ومكانتها منه.

٣- تعدد مواطن ورود الإيجاز بالحذف وخاصة حذف الجمل تناسبًا مع مقام القصص حتى يتوفر الكلام على الغرض المقصود منه.

٤- الدقة في اختيار الفاء وتكررها كثيرًا في الربط بين الجمل مما جعل الحديث على طوله كأنه جملة واحدة.

وبجانب هذه الظواهر العامة كانت بعض الألوان البلاغية الثانوية مثل المقابلة والفصل والوصل وغير ذلك مما كان له دور في إثراء المعنى، والتعبير عنه في أبهى صورة. وبهذا تكاتفت كل العناصر لخدمة الغرض المقصود من الحديث وكانت على ضرب من التناغم والتناسق وبلاغة النبي (ﷺ).

وفي نهاية حديثي عن إبراهيم (عليه السلام) تلوح لي لطيفة من اللطائف النبوية، فبمعاودة تأملي في الأحاديث الثلاثة التي ذُكرت عن إبراهيم (عليه السلام) وهي أنه في الحديثين الأولين حين يذكر النبي (ﷺ) إبراهيم بذكر اسمه مجردًا ففي الحديث الأول: "وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم" وفي الحديث الثاني "يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة" بخلاف الحديث الثالث حين ذكره داعيًا له بالسلام: "لم يكذب إبراهيم (عليه السلام) إلا ثلاث كذبات" وهذا تناسب مع المقام، وذلك أنه لما كان الحديثان الأولان عن صفات مدح ظاهرة لإبراهيم (عليه السلام) لا لبس فيها لم يكن المقام بحاجة إلى الدعاء، ولما كان ظاهر الأسلوب في الحديث الثالث يوحي بصفة ذم "لم يكذب إبراهيم (عليه السلام) إلا ثلاث كذبات" استدعى ذلك الدعاء بالسلام، وكأن الدعاء هنا احتراس نبوي من أن يتطرق شك في أن ما سيذكر هو صفات ذم لإبراهيم (عليه السلام) تبرئة له مما قد يتوهمه البعض، وهذه بلاغة نبوية عالية.

المبحث الثالث

السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن موسى (عليه السلام)

أولاً: السمات البلاغية في الحديث عن موسى (عليه السلام) في مقام التبرئة:

تعرَّض سيدنا موسى (عليه السلام) لتهم كثيرة من قومه، وأوذي كإخوانه من أولي العزم بأشد أنواع الإيذاء، فصبر وتحمل فأثبت الله براءته مما يرمونه به.

والحديث التالي يعرض لنا واحدة من هذه التهم التي ألصقها به قومه وكيف أن الله – تعالى – أثبت براءته أمام نواظرهم، مما سنطالعه من خلال هذا الحديث.

(نصّ الحديث)

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): "إن موسى كان رجلاً حييًّا ستّيرًا لا يرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذانه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أُدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبا

من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾.[1]

ومقام الحديث تبرئة لسيدنا موسى (عليه السلام) مما قد رمته به بنو إسرائيل، ودحر افترائهم عليه، وإيذائهم له.

وقد جاء ذلك في البيان النبوي من خلال هذا المشهد العجيب الذي حدث له. ومن الملاحظ في عرض أحداث هذه القصة التفصيل والإطناب بذكر كل المواقف التي حدثت فجاءت محبوكة الأطراف موصولة الأجزاء، مرتبطًا بعضها ببعض في تسلسل واتساق يسلمك السابق إلى اللاحق حتى تصل إلى خاتمتها. وبناء الحديث يأخذ الشكل القصصي فناسب ذلك أن تكثر الجمل الخبرية المؤكدة، فيبدأ الحديث بقوله (ﷺ): "إن موسى كان رجلاً حييًا ستِّيرًا" وهي جملة خبرية مؤكدة بإن واسمية الجملة ووصفين متتالين "حييًا ستيرًا" أحدهما مستلزم للآخر، فالحياء يستلزم الستر والصون عما قد يخدشه لتأكيد هذه الصفات لسيدنا موسى (عليه السلام) وتقريرها في نفس السامع.

وإيراد الجملة اسمية دلالة على دوام هذه الأوصاف وثبوتها له (عليه السلام) أي أن (من شأنه وإرادته حب الستر والصون). [2] مبالغة في إثباتها له. وتتبدَّى البلاغة النبوية العالية هنا في سبق هذين الوصفين "حييًا ستيرًا" بوصف الرجولة، للإشعار بأن وصف الحياة والستر لا يتنافى ولا يتعارض مع الوصف بالرجولة

---

(١) صحيح البخاري، صـ(٧١٥)، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم (٣٤٠٤)، والأُدرة: مرض بالخصيتين تنتفخ منه، وهي التي يسميها الناس الأقليط. ينظر: عمدة القاري (٤٠/١٣).

(٢) عمدة القاري (٤٠/١٣).

وأنهما من مكمِّلاتها، والأحاديث عن الحياة وفضله أكثر من أن تحصى في مثل هذا المقام.

ومن الألوان التعبيرية الموصلة إلى الدلالة على قوة الحياء الذي يتصف به سيدنا موسى (عليه السلام) إيراد لفظ (حَيِيًّا) على صورة تنبئ بقوة الحياء لا بمجرد حدوثه، ثم إن مجيء هذا اللفظ على صيغة (فعيل) دون غيرها مما يشركها في الدلالة على المبالغة لما تومئ به من شدة الحياء، فحياء سيدنا موسى (عليه السلام) ليس حياءً عاديًا، وإنما هو حياء على درجة كبيرة من القوة والشدة.

كما أن وصفه (عليه السلام) بهذين الوصفين لا يمنعه من الوقوف بجانب الحق، ولا ينفي عنه الشجاعة والقوة، وتقديم ما يجب عليه تقديمه، وخير شاهد على ذلك موقفه من ابنتي شعيب (عليه السلام) وسقيه لهما، وكذلك موقفه من هذا الذي استنصره على عدوه.

ويأبى البيان النبوي إلا أن يثبت لموسى (عليه السلام) أقصى درجات الحياء وذلك من خلال الإتيان بدليل ملموس على ذلك ليكون أبلغ في الإثبات وذلك قوله: "لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه" وهذا دليل قوي على شدة حيائه (عليه السلام) وهذه الجملة كما ذكر ابن حجر إشارة إلى أن اغتسال بني إسرائيل عراة بمحضر منهم كان جائزًا في شرعهم وإنما اغتسل موسى وحده استحياء[1]، ويؤيده الحديث: "كانت بنو إسرائيل يغتسلون عُراة ينظر بعضهم إلى بعض وكان موسى يغتسل وحده ... الحديث"[2] وأول ما يلفت النظر في هذا التركيب تنكير

---

(١) فتح الباري (٤٣٧/٦).

(٢) ينظر: صحيح البخاري، كتاب الغُسل – باب "من اغتسل عريانًا وحده في الخلوة ..." صـ(٧٢)، حديث رقم (٢٧٨).

(شيء) "لا يرى من جلده شيء" دلالة على العموم أي لا يُرى من جلده أي شيء ولو كان يسيرًا مما يدل على شدة حيائه، وقوة تستره وصونه.

والإفصاح بعلة التستر وهي الحياء "استحياءً منه" الذي يمنعه من أن يرى أحد شيئًا من جلده يعتبر أبلغ ردٍّ عليهم فيما رمَوْه به بعد ذلك من العيب.

وبعد أن يؤكد البيان النبوي على اتصاف سيدنا موسى (عليه السلام) بالحياء يدلف إلى سرد مشهد قد حدث له ليقرر وبقوة ما سبق أن أكَّد عليه مطلع الحديث وهو شدة حياء سيدنا موسى (عليه السلام) نطالع ذلك في قوله (ﷺ) "فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلى من عيب بجلده إما برص وإما أُدرة وإما آفة" وهذا التركيب يبين نوع الإيذاء الذي لاقاه منهم في هذا الصدد، وهو تعليلهم تستره بأنه لا يكون إلا من عيب يكره أن يطلَّع عليه أحد.

والتعبير بمَن في قوله "فآذاه من آذاه من بني إسرائيل" وهي لا تكون إلا للعاقل إشارة إلى أن من يتصفون بالعقل منهم قد آذوه بمثل هذه المقالة، فمالك بغيرهم ممن لا ينطبق عليه هذا الوصف، مما يدل على شدة الإيذاء وعموميته.

ومجيء فعل الإيذاء ماضيًا "فآذاه" دلالة على تحقق وقوعه.

وإيثار التعبير ببني إسرائيل دون أن يقال: فآذاه من آذاه من قومه، إشعار بذمِّهم وكمال قبحهم وسفاهتهم فلو كانوا قومه حقًّا لما أقدموا على إيذائه.

وإيراد الجملة "ما يستتر هذا التستر إلى من عيب بجلده" في سياق أسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء تأكيد لشدة وثوقهم بما يقولون، والمبالغة في إصرارهم على إيذائه مما يدل على شدة افترائهم، وبشاعة جرمهم وكذبهم.

وضاعف من جمال التأكيد تنكير (عيب) لإفادة العموم أي أن به أي عيب، وتتمثل بلاغة التنكير هنا في إشارته إلى تخبطهم وافترائهم بعدم تحديد هذا العيب وتعيينه من أول الأمر، ومما يدل على شدة خبثهم تعليهم العيب بالجلد

دون البدن لأن الجلد أوضح ما تظهر عليه العيوب دلالة على ظهور العيب به مما يدعوه إلى التستر.

وقوله: "إما برص وإما أُدرة وإما آفة" يحمل لونين من ألوان الإطناب:

الأول: التفصيل بعد الإجمال، حيث إن قوله "إما برص وإما أدرة وإما آفة" تفصيل للعيب المذكور في الجملة قبله، والسر في هذا التفصيل هو تأكيدهم أن به عيبًا، ولذلك لم يأت قولهم: ما يستتر هذا التستر إلا من برص أو أدرة أو آفة، وإنما أرادوا التأكيد من خلال عرض المعنى في صورتين إحداهما مجملة أولاً، والثانية مفصلة لهذا الإجمال، وفي هذا تأكيد للمعنى المراد، مما يدل على شدة قبحهم وحقارتهم.

الثاني: عطف العام على الخاص، وتجلى ذلك من خلال عطف الآفة على ما قبلها، فكل مرض آفة ويدخل فيه البرص والأُدرة، وهذا العطف يظهر ما هم فيه من شدة تخبط وضلال حيث لا يستطيعون تعيين العيب الذي يرمونه، ولا يثبتون على حال واحدة، مما يشير إلى شدة كذبهم وافترائهم ومما يبالغ في كمال قبحهم، وإمعانهم في الإيذاء اختصاصهم البرص والأُدرة دون غيرهما من الأمراض. ولعلَّ ذلك لأن أولهما وهو البرص يحرج الإنسان أمام الناس، ويجعلهم يستقذرونه، وثانيهما وهو الأُدرة يحرجه أمام نفسه أولاً ثم أمام الناس.

وتقديمهم البرص إشارة إلى شدة قبحهم، وفساد نيَّتهم حيث إنه يضر بصاحبه وبمن يقترب منه لما يحدثه من عدوى، وكأنهم بذلك يدعون إلى الابتعاد عنه، والاشمئزاز منه، وعدم مخالطته، وهذا إيذاء قوي آخر أشد وقعًا على نفسه مما يرمونه به.

وبعد أن تبين كمال قبحهم، وشدة عداوتهم تأتي براءته من الله – تعالى – حيث يقول النبي (ﷺ): "وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى" وهي جملة اسمية مؤكدة بإن لأنها في مقام الرد عليهم، وإبرائه مما يرمونه به. والتعبير بالفعل أراد وما يدل عليه من عزم وإصرار وإسناده إلى المولى – سبحانه – إشارة إلى أنه مبرأ لا محالة لأن من يتولى تبرئته هو الله وحده المالك الحقيقي لها ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة يس: (٨٢)].

ومن الألوان البلاغية البارزة في هذا التركيب الإظهار في موطن الإضمار، فلم يقل النبي (ﷺ) وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا له تماشيًا مع السياق وهذا الإظهار له سر بلاغي وهو الإشارة إلى أنهم قد واجهوا سيدنا موسى (عليه السلام) بهذا الافتراء صراحة مما يشير إلى كمال جراءتهم على الباطل.

وقوله: "فخلا يومًا وحده" عُبِّر فيه بالفعل الماضي (خلا) دلالة على تحقق الوقوع، وتنكير (يومًا) لأنه يوم غير معين، حيث لا يتعلق بتعيينه غرض فالمهم أن الخلوة قد حدثت له في يوم من الأيام، ومما يؤكد شدة حيائه (عليه السلام) التعبير بيوم دون ساعة وفي هذا دلالة على أنه أراد أن يتجنب قومه طوال اليوم إلى أن تتاح له فرصة الاغتسال دون أن يراه أحد. ولفظ (وحده) تأكيد للفعل (خلا) تقرير الشديدة حيائه (عليه السلام) حيث لم يكن معه أي أحد حتى هارون. وقوله: "فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه".

ومعنى: عدا بثوبه أي مضى مسرعًا بثوبه، وكان هذا بأمر الله – تعالى – وفي الصورة كما هو واضح حركة، وهي حركته (عليه السلام) وهو يذهب ليغتسل فيخلع ثيابه ويضعه على الحجر ثم يمضي به الحجر إلى غير ذلك، وهذه

الحركة مناسبة لسياق السرد القصصي وذلك لما تحدثه من أسرٍ للعيون والقلوب لتتابع أحداث القصة، وما يدور فيها، وهذا أبلغ في إثبات المعنى.

وقوله: "فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجرُ ثوبي حجرُ" يصوِّر حالة القلق والخوف التي أصابته حين عدا الحجر بثوبه خوفًا من أن يراه أحد وهو على هذه الحال مما يؤكد شدة حيائه وتستره مما يشير إلى أن ثَمَّ ارتباطًا بين هذا التركيب وبين بداية الحديث "إن موسى كان رجلاً حييًا ستيرًا".

ومن البلاغة النبوية العالية في هذا التركيب إيراد العبارة حاملة لونين متضادين من ألوان البلاغة للتوفر على أداء معنى واحد ويتجلى ذلك في قوله: "ثوبي حجرٌ ثوبي حجرٌ" حيث يحمل هذا القول لونين متضادين كلاهما مناسب للمقام.

الأول: الإيجاز بالحذف ويتمثل ذلك في حذف حرف النداء والفعل والتقدير: رُد ثوبي يا حجر، وهذا الإيجاز متناسب مع ضيق صدره، وشدة خوفه من أن يراه أحد وهو على هذه الصورة مما يؤكد شدة حيائه (عليه السلام).

الثاني: الإطناب بتكرار الجملة "ثوبي حجر ثوبي حجر" وهذا التكرار له دلالته حيث يظهر شدة حرصه على أن يُرد إليه ثوبه حتى لا يراه أحد، مما يؤكد شدة حيائه أيضًا. والتعبير بفعل القول (يقول) مضارعًا يشير إلى تجدد هذا القول منه (عليه السلام) مرات عديدة وليس مرتين فقط مما يدل أيضًا على شدة خوفه.

يقول ابن حجر: (وإنما خاطبه لأنه أجراه مجرى من يعقل لكونه فرَّ بثوبه فانتقل عنده من حكم الجماد إلى حكم الحيوان فناداه فلما لم يعطه ضربه، وقيل: يحتمل أن يكون موسى أراد بضربه إظهار المعجزة بتأثير ضربه فيه، ويحتمل

أن يكون عن وحي). [1] والأوفق عندي هو الأول لتناسبه مع ما فيه موسى (عليه السلام) من خوف وذهول لما حدث له. والله أعلم.

وبعد أن كشفت الجملة السابقة ما هو فيه من ذهول وخوف يأتي ما كان يحذره – وهو الذي فيه تبرئته – حيث يراه ملأ من بني إسرائيل عُريانًا – وهو ما لم يكن يريده لكن إرادة الله هي الغالبة – فيجدونه أحسن ما خلق الله، وبهذا أبرأه الله – تعالى – مما يقولون.

ومن الدقة النبوية هنا اختيار لفظة الملأ وهي لا تطلق إلا على قوم أولى شأن وجاه في أقوامهم، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف: (٨٨)] وغيرها.

فاختيار هذه اللفظة لما فيها من إيحاء بأن من رأوه عريانًا أحسن ما خلق الله هم عِلْيَةُ القوم المشهورون بالتكبر والعناد وإيذاء الأنبياء، وفي هذا من المبالغة في تبرئته ما فيه.

ولم تقتصر الدقة على اختيار اللفظة وإنما كانت هناك دقة من نوع آخر في نفس اللفظة تمثلت في تنكير (ملأ) للدلالة على كثرة من رأوه منهم على هذه الحالة، مما يبالغ في تأكيد براءته (عليه السلام).

---

(١) فتح الباري (٣٨٦/١).

ثم تختم القصة بقوله (ﷺ): "وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه".(١)

وأول ما يلفت النظر في هذا التركيب العطف بالفاء في الفعلين (فأخذ – فلبسه) للدلالة على أنه بمجرد أن وقف الحجر أسرع سيدنا موسى (عليه السلام) بأخذ ثوبه وسرعة لبسه لتؤكد نهاية الحديث ما سبق التأكيد عليه في بدايته من شدة حياء سيدنا موسى (عليه السلام).

وإيثار التعبير بالفعل (أخذ) دون غيره مما يحمل المعنى نفسه كتناول مثلاً، لما في الأخذ من قوة وشدة كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة هود: (١٠٢)]، مما يفيد شدة العزم والتصميم الذي بنفس سيدنا موسى (عليه السلام) على الحصول على مطلوبه، وهو الظفر بثيابه، وهذا مما يؤكد أيضًا شدة حيائه (عليه السلام).

كذلك اشتمل التركيب على موضعين للإيجاز بالحذف هما:

الأول: الإيجاز بحذف المسند إليه في قوله: (فأخذ ثوبه)، والتقدير: فأخذ موسى ثوبه – وكذلك قوله: (فلبسه) والتقدير: فلبس موسى ثوبه.

الثاني: حذف المسند في قوله: "وطفق بالحجر ضربًا" والتقدير: وطفق يضرب الحجر ضربًا.

---

(١) هذا القول هو نهاية الحديث، أما ما ذكر بعد ذلك من القول: "فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ... إلى آخر الحديث". فقد ذكر ابن حجر أن هذا من كلام أبي هريرة (رضي الله عنه). ينظر: فتح الباري ٤٣٧/٦.

ولا يخفى أن سر الحذف في الموضعين واحد وهو ضيق المقام حيث إن سيدنا موسى (عليه السلام) ضائق الصدر مما قد حدث له من اطلاع بني إسرائيل على جسده، فناسب ذلك أن يأتي التعبير عما حدث له في هذه الحالة على هذه الصورة من الإيجاز ليتناسب مع ما فيه سيدنا موسى (عليه السلام) من ضيق وضجر بما حدث، مما يبالغ في إظهار شدة حيائه (عليه السلام).

وبعد. فلقد جاء الحديث في أسلوب يعتمد طريقة السرد القصصي كما ذكرت ولذلك ناسبه أن يغلب الطابع الخبري، فجاءت معظم جملة خبرية، كذلك جاءت معظم الأفعال في الحديث ماضية مناسبة لمقام السرد القصصي حيث إنه سرد لقصة حدثت ومضى زمنها فناسبها أن تكثر الأفعال الماضية دلالة على تحقق وقوع أحداثها، كذلك تناسب أيضًا – نظرًا لطول القصة بعض الشيء – أن تشتمل على بعض صور الإطناب في مواطن ناسبها هذا اللون من الإطناب كالتفصيل بعد الإجمال، وعطف العام على الخاص، وفي مواطن أخرى ناسبها الإيجاز كحذف المسند أو المسند إليه، وكان لكل في موضعه من البراعة والمواءمة للمقام ما فيه، كما رأينا دقة عالية فيما جاء عليه الحديث سواء على مستوى الجمل أو المفردات أو الحروف.

ومن مناسبات القصة أيضًا ما اشتمل عليه الحديث من حركة، وكأن هذه الحركة قد جاءت لتؤكد أن سيدنا موسى (عليه السلام) لم يال جهدًا، ولم يدخِّر وسعًا لإثبات كل ما من شأنه أن يؤكد حياءه.

كما أنه عند التمعن في الحديث نجد أن الحجر والعصا كان لهما دور في أحداث القصة، فالحجر عدا بثوبه، والعصا قد أفثأ بها الكليم (عليه السلام) بعض ما وجده في صدره من ضيق بسبب ما حدث له حيث وجد لنفسه متنفسًّا من خلال ضربه الحجر بها، ومعلوم أن الحجر والعصا من معجزات سيدنا موسى (عليه السلام) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، مما يظهر مدى التوافق والتوارد بين البيان القرآني والبيان النبوي، وأنهما من معين واحد.

ثانيًا: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن موسى (عليه السلام) في مقام الغضب:

النبي (ﷺ) بشر، يعتريه ما يعتري غيره من البشر من حزن وسرور، وغضب وفرح، لكنه (ﷺ) يختلف عنهم في أنه في كل حالاته لا يقول إلا حقًا، ولا يغضب إلا لله.

وقد تحدث النبي (ﷺ) عن موسى (عليه السلام) وهو في حالة غضب مما حدث من بعض أصحابه في حديثين، نذكرهما على الوجه التالي:

(الحديث الأول)

عن عبد الله ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قسم النبي (ﷺ) قسمًا، فقال رجل: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي (ﷺ) فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: "يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر".(١)

ومقام الحديث كما هو واضح مقام غضب لما حدث من هذا الرجل الذي اعترض على قسمة النبي (ﷺ).

والغرض من الحديث – كما ذكر ابن حجر – هو ذكر موسى (عليه السلام).(٢)

ولا يخفى ما بين هذا الحديث والحديث السابق من علاقة قوية، فالسابق يحكي قصة معينة أوذي فيها سيدنا موسى (عليه السلام) وهي افتراء بني إسرائيل عليه بادعائهم أن به عيبًا بجسده، وهذا الحديث يذكر كثرة الإيذاء الذي تعرَّض له سيدنا موسى (عليه السلام) دون تحديد لنوع معين من الإيذاء الذي كان يتعرض له، فبينهما عموم وخصوص.

---

(١) صحيح البخاري، صـ(٧١٥)، حديث رقم (٣٤٠٥).

(٢) ينظر: فتح الباري (٤٣٨/٦).

وعلى الرغم من قِصَر الحديث إلا أننا لا نعدم فيه ألوانًا بلاغية كثيرة تتناسب مع المقام منها: الإيجاز وهذا اللون هو المسيطر على الحديث، ولا أدلّ على ذلك من مجيء الحديث مكوَّنًا من جملتين جاءت الثانية منهما سببًا للأولى، فدعاء النبي (ﷺ) لسيدنا موسى (عليه السلام) سببه كثرة ما تعرض له من إيذاء وصبر.

كذلك من مظاهر الإيجاز في الحديث الإجمال في قوله "قد أوذي بأكثر من هذا فصبر" دون أن يفصِّل أنواع هذا الإيذاء، وهذا هو ما يعرف بإيجاز القِصَر، ولا يخفى ما فيه من ملاءمة مع مقام الغضب.

ومن الألوان البلاغية التي اشتمل عليها الحديث الفصل بين جملة "قد أوذي بأكثر من هذا فصبر" وما قبلها لما بينهما من كمال الانقطاع بلا إيهام حيث إن الجملة الأولى "يرحم الله موسى" خبرية لفظًا إنشائية معنى لأن معناها الدعاء فكأنه قال: اللهم ارحم موسى، والجملة الثانية "قد أوذي بأكثر من هذا فصبر" خبرية لفظًا ومعنى فاقتضى ذلك الفصل لما بينهما من كمال انقطاع.

كما يمكن توجيه سرِّ الفصل على الاستئناف البياني وهو ما يعرف عند البلاغيين بشبه كمال الاتصال وضابطه: أن تكون الجملة الثانية جوابًا عن سؤال مقدر اقتضته الجملة الأولى فتفصل عنها كما يفصل الجواب عن السؤال.

فتكون الجملة الثانية هنا "قد أوذي ..." بمثابة سؤال مقدر تضمنته الجملة الأولى ويمكن تقدير السؤال هنا: ما سبب دعاء النبي (ﷺ) لموسى (عليه السلام) بالرحمة ؟ فتأتي الإجابة في الجملة الثانية وهي أنه أوذي بأكثر من هذا فصبر، واستئناف الجواب هذا (يتم به الكلام المنبثق من الجملة السابقة). [1]

---

(١) دلالات التراكيب، د/ محمد أبو موسى صـ(٣١٦)، مكتبة وهبة، دار التضامن، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

ومما يقوِّي كون الفصل هنا للاستئناف البياني – في رأيي – أمران:

الأول: صحة دخول لام التعليل أو فائه على الجملة الثانية.

الثاني: ما في تقدير السؤال من إيجاز واختصار بتكثير المعنى وتقليل اللفظ وهو ما يتناسب مع مقام الحديث، والأسلوب المسيطر عليه.

كذلك من السِّمات البلاغية التي اشتمل عليها الحديث التأكيد، وقد بدا ذلك في موضعين:

الأول: من خلال الإتيان بالإنشاء في صورة الخبر "يرحم الله موسى" فهو فضلاً عما فيه من إشعار بتيقن الإجابة واستحضارها خاصة وأنه عبر بالمضارع (يرحم)، ففيه تأكيد أيضًا وذلك "أن الخبر يحمل من التأكيد ما لا يحمله الإنشاء".(١)

والتعبير بالمضارع (يرحم) يشي بتجدد هذا الدعاء من النبي (ﷺ) لسيدنا موسى(عليه السلام) واستمراره.

وإسناده إلى لفظ الجلالة (الله) فضلاً عما فيه من إعظام لشأن هذه الرحمة، فإن فيه لفتة بلاغية وهي أن الله وحده هو القادر على أن يعطي الأنبياء القدرة في مثل هذه المواقف على تحمل أقوامهم، والصبر على إيذائهم.

الثاني: التأكيد بقد في قوله: "قد أوذي بأكثر من هذا فصبر" تأكيدًا لشدة الإيذاء الذي تعرَّض له سيدنا موسى (عليه السلام) وكثرته.

---

(١) من بلاغة النبي (ﷺ) في بيانه عن المرأة، دراسة في الصحيحين، د/ سعيد جمعة، صـ١٥٤، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالقاهرة، عام ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

ويتعانق مع التأكيد في تقرير شدة الإيذاء الذي تعرَّض لـــه الإتيـــان بالفعـــل (أوذى) مبنيًا لغير فاعله، وألمح في هذا دلالة على كثرة من آذوه حتى لـــم يعـــد يُعرف لهذا الإيذاء فاعل معين.

وكذلك التعبير بأفعل التفضيل "أكثر" من الكثرة وما يدل عليـــه مـــن كثـــرة المعاناة والشدائد التي لاقاها سيدنا موسى (عليه السلام) من بني إسرائيل.

وهكذا وجدنا أن الحديث على الرغم من قِصَره إلا أنه غني بكثـــرة الألـــوان البلاغية سواء كان ذلك على مستوى المفردات أو الجمـــل وكانـــت غايـــة فـــي المواءمة والتناسق مع مقام الحديث – كما وضحت – وكان الإيجاز هو الـــسمة الغالبة على الحديث، مما جعله غاية في البلاغة والفصاحة.

(الحديث الثاني)

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقـــال المسلم: والذي اصطفى محمدًا (صلى الله عليه وسلم) على العالمين – في قسَم يقسم بـــه – فقـــال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده، فلطـــم اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: "لا تخيِّروني على موسى، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يُفيق، فـــإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلـــي، أو كـــان ممن استثنى الله".[1]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسى وذكره بعـــد، صـــــ(٧١٦)، حديث رقم (٣٤٠٨)، والصعق: غشى يذهب العقل مـــن صـــوت يـــسمع، والـــصاعقة =

ومقام الحديث مقام غضب كما هو واضح من سياقه، حيث إن النبي (ﷺ) قاله بعد هذه المواجهة التي حدثت بين المسلم[1] واليهودي وانحياز كل منهما لنبيه.

والغرض من الحديث بيان فضل سيدنا موسى (عليه السلام) وذكر خصوصية تتعلق به.

وسياق الحديث يتقاسمه الإنشاء والخبر حيث بدأ بالنهي "لا تخيِّروني على موسى" وتلاه الخبر "فإن الناس يصعقون ... إلى آخر الحديث".

وابتداء الحديث بالنهي عن تفضيله (ﷺ) على موسى (عليه السلام) يطرح تساؤلاً مفاده: هل النهي هنا خاص يقصد به عدم تفضيله (ﷺ) على سيدنا موسى (عليه السلام) فقط، أم هو عام ينصبُّ على جميع الأنبياء ؟ وإذا كان عامًّا فلم خصَّ موسى (عليه السلام) هنا ؟

وبالتأمل وإعمال الفكر يتضح عموم النهي، فإن ما عُرف عن النبي (ﷺ) من تواضع يجعله لا يرضى بتفضيله على أي أحد فضلاً عن الأنبياء، مع ما له (ﷺ) من خصوصيات كثيرة دالة على أفضليته على جميع الخلق، ويؤيد ذلك

=

والصعقة: الصيحة يغشى منها على من يسمعها أو يموت. اللسان (صعق)، دار صادر، بيروت، ط١.

(١) رجح ابن حجر أن يكون المسلم الذي فعل ذلك هو سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، وإنما صنع ذلك لما فهمه من عموم لفظ العالمين فدخل فيه محمد (ﷺ) وقد تقرر عند المسلم أن محمدًا أفضل، فدل ذلك على أنه لطم اليهودي عقوبة على كذبه عنده، فتح الباري (٤٤٣/٦).

الحديث: "ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى".[1] وخص موسى (عليه السلام) هنا لبيان فضله تناسبًا مع مقام الحديث، حيث إنه في سياق الرد على المسلم الذي لطم اليهودي بسبب قسمه بسيدنا موسى (عليه السلام).

وبعد ابتداء الحديث بالنهي عن تفضيله (ﷺ) على موسى (عليه السلام) يأتي البيان النبوي بإظهار العلة في عدم تفضيله عليه بذكر خصوصية لسيدنا موسى (عليه السلام)، وذلك قوله: "فإن الناس يصعقون"، والفاء للسببية، حيث جاءت لبيان سبب النهي عن تفضيله عليه، فهي جملة تعليلية مؤكدة بإن واسمية الجملة لأنها إخبار عن شيء غيبيّ فناسبه التأكيد حتى يتقرر في النفوس.

وذكر الناس عامًا يشمل جميع الخلق الأحياء منهم والأموات عدا من استثنى الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الزمر: (٦٨)].

واختيار لفظ الناس وما يدل عليه من نَوَس واضطراب[2] وحركة متناسب مع ما فيه الخلق يومئذ من خوف وقلق، مما يجعل لهذه اللفظة في هذا الموضع تأنقًا وتألقًا لم نكن لنراه لو جيء بغيرها مكانها.

واختيار مادة – صعق – لما فيها من قوة، فلم يقل فإن الناس يموتون، لما يدل عليه الصعق من موت بقوة، وأنه ليس موتًا عاديًا، وإنما فيه عنصر القوة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: "وإن يونس لمن المرسلين"، صـ(٧١٨)، حديث رقم (٣٤١٣).

(٢) ينظر: المفردات للراغب (نوس)، صـ(٥١٠، ٥١١).

والفجاءة والسرعة، حيث تتوقف أجهزة الجسم وتتجمد الدماء في العروق مرة واحدة، ولذلك يقال لمن مات بالتيار الكهربي؛ صعقته الكهرباء لتوقف أجهزته دفعة واحدة وفي هذا يترسم البيان النبوي خطى البيان القرآني في الحديث عن هذا الموقف. والتعبير بالمضارع (يصعقون) استحضار لهذه الصورة العجيبة القوية.

ولما كان السياق هنا يصور القلق والاضطراب والخوف من المصير المجهول كان مناسبًا له الإيجاز بحذف الجملة في قوله "فإن الناس يصعقون فأكون أول من يُفيق" والتقدير: فإن الناس يصعقون فأصعق معهم فأكون أول من يفيق، فحذفت جملة – فأصعق معهم – تناسبًا مع مقام الصعق وما فيه من شدة خوف وفزع تجعل صاحبها في حالة لا تسمح له ببسط الكلام وإطالته، كما لا يخفى ما فيه من حفظ لمقام النبي (ﷺ).

والإفاقة تكون بعد النفخة الثانية كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الزمر: (٦٨)].

وذكر ابن الملقن أن هناك وهمًا بين قوله: "فأكون أول من يفيق"، وقوله: "فلا أدري أفاق قبلي"، وذكر أن الصحيح "فأكون أول من تنشق عنه الأرض" والانشقاق غير الإفاقة. (١)

---

(١) ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقّن (٤٦٣/١٩).

ويبدو لي – والله أعلم – أن الحديث كما ذكر (فأكون أول من يفيق) حيث ذكره النبي (ﷺ) بناءً على ما يعتقده من أنه أول من يفيق بدلالة فاء الفجائية بعد "فإذا موسى باطن بجانب العرش" التي تدل على أن شيئًا لم يكن يتوقَّعه النبي (ﷺ) قد حدث وهو رؤيته لسيدنا موسى (عليه السلام) بجانب العرش.

وقوله: "فإذا موسى باطن بجانب العرش" أي آخذ بشيء من العرش، وابتداء التركيب بالفاء لما تدل عليه من عنصر المفاجأة – كما ذكرت –.

واختيار اسم الفاعل (باطن) دليل على الاستمرار والثبوت، ويتناسق مع التعبير باسم الفاعل اختيار مادة – ب ط ش – لما تدل عليه من قوة الأخذ بالعرش، والتشبث به، حيث إن البطش يدل على الأخذ بقوة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [سورة البروج: (١٢)]، مما يدل على شدة تعلق سيدنا موسى (عليه السلام) بالعرش.

وقوله: "فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله" أي فلم يكن ممن صعق. وعلى أي من الاحتمالين فهو فضيلة لسيدنا موسى (عليه السلام) (فإن كان أفاق قبلي فهي فضيلة ظاهرة، وإن كان ممن استثنى الله فلم يصعق فهي فضيلة أيضًا) [1] ونقل ابن حجر عن الداودي الشارح معنى غريبًا غلَّطه فيه وهو أن قوله "استثنى الله" أي جعله ثانيًا[2]، ولا يخفى ما فيه من بُعد وتناف مع ما جاء في الحديث. وقد بنى التركيب السابق على الإيجاز بالحذف أيضًا إذ التقدير: فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله فلم يصعق، حيث حذفت جملة –

---

(١) فتح الباري (٦/٤٤٥).

(٢) السابق – الصفحة.

فلم يصعق – من الاحتمال الثاني وهو إيجاز متناسب مع مقام الصعق وما فيه من شدة الهول والفزع – يومئذ – كما أنه من فوائد الإيجاز هنا الاحتراز عن ذكر ما هو معروف، حيث إن الجملة المحذوفة قد دلت عليها جملة مذكورة قبلها من أوله إلى منتهاه، وهو إيجاز معبِّر جاء متناغمًا مع مقام الحديث عن الصعق والإفاقة وهو لا شك مقام خوف واضطراب وقلق يستدعي أن يقل الكلام، كذلك تعاضد مع الإيجاز في إبراز المعنى اختيار الألفاظ القوية المتناسبة مع قوة هذا اليوم – يصعقون – يفيق – باطن. وبهذا كان الحديث في بلاغته صُعدة يعز ارتقاؤها.

بقي أن أشير أن القرآن الكريم تحدث عن أن موسى (عليه السلام) قد صعق في الدنيا على جبل الطور حين تجلَّى له ربه – كما في قوله تعالى –: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف: (١٤٣)].

وجاء في السنة النبوية هنا فأظهرت العدالة الإلهية القاضية بأن الله – تعالى – لا يجمع على عبد خوفين، فإن كان موسى (عليه السلام) قد عاني من الصعق في الدنيا فإنه سيكون بمأمن منه في يوم القيامة بألا يصعق ثانية، وإن صعق فسيكافأ بأن يكون أول من يفيق، مما يدل على قصر مدة صعقه، وفي هذا إظهار لمكانة السنة النبوية من القرآن الكريم.

المبحث الرابع
السِّمات البلاغيّة في الحديث عن عيسى (عليه السلام)

أولاً: السمّات البلاغيّة في الحديث عن عيسى (عليه السلام) في مقام التوحيد:

قضية التوحيد هي القضية التي من أجلها أرسل الله – تعالى – الرسل (عليهم السلام) ولم نجد من خلال ما ذكره القرآن الكريم من جادل في هذه القضية كالنصارى بادّعائهم ألوهية عيسى (عليه السلام).

وقد سلك القرآن طرقاً متباينة في سبيل ردِّهم عن هذا الزعم فمرة ينهاهم صراحة ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ﴾ ثم يتبع ذلك بالأمر المضمَّن للترغيب في فعل ما يؤمر به ﴿ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾ [سورة النساء: (١٧١)] ويتدرج معهم ليقنعهم بالدليل ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ ﴾ [سورة النساء: (١٧٢)]، ومرة يرهبهم ﴿ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣ ﴾ [سورة المائدة: (٧٣)]، ومرة يحكم بكفر من يقول منهم ذلك ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ ﴾ [سورة المائدة: (٧٣)]،

وقوله ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [سورة المائدة: (٧٢)]، وغير ذلك.

ويأتي البيان النبوي سالكًا بعض الطرق التي سلكها القرآن الكريم في الرد عليهم فمرة يرد عليهم من خلال الترغيب في الإيمان بسيدنا عيسى (عليه السلام) وبكل ما جاء عنه، وهذا ما سنراه في الحديث الأول، ومرة من خلال نهيهم صراحة عن هذا الزعم وهو ما سيتجلى في الحديث الثاني، وذلك على النحو التالي:

(الحديث الأول)

عن عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل".[1]

ومقام الحديث يبين منزلة الإيمان بسيدنا عيسى (عليه السلام) وبكل ما جاء عنه، ردًا على القائلين بألوهيته.

وذكر ابن حجر نقلاً عن القرطبي أن (مقصود هذا الحديث التنبيه على ما وقع للنصارى من الضلال في عيسى وأمه)[2]، وذلك قولهم بألوهيته. وسياق الحديث مبني على الشرط وجوابه، وبين الشرط والجواب يحمل الحديث ألوانًا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: "﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ ... ﴾"، ص(٧٢٣)، حديث رقم (٣٤٣٥).

(٢) فتح الباري: (٦/٤٧٥).

بلاغية أخرى تساعد على استجلاء ما في الحديث من معان. فقوله: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، وما عطف عليه شرط جوابه في آخر الحديث "أدخله الله الجنة"، وبناء الحديث على الشرط وجوابه تحفيز على فعل ما في الشرط من أشياء تجعله جديرًا بأن يتحصَّل على ما اشتمل عليه الجزاء، هذا فضلاً عما فيه من تأكيد لتحقق الجزاء فور تحقق الشرط فمن شهد بكذا وكذا ... أدخله الله الجنة.

وتقديم الشهادة بوحدانية الله – تعالى – تأكيد للمقصود الأصلي من الحديث وهو الرد على النصارى في ادِّعائهم ألوهية عيسى (عليه السلام)، وهذا من براعة الاستهلال النبوي فلو أذعنوا من أول الأمر بوحدانية الله – تعالى – ثم لم يعترفوا بعد ذلك بعبودية عيسى (عليه السلام) لكان ذلك تضاربًا في أقوالهم، ولكذبوا أنفسهم حيث إن بداية الحديث تحفزهم على الاعتراف بالوحدانية، وما بعد ذلك في الحديث مترتب على هذا الاعتراف.

ومن الألوان البلاغية البارزة في الحديث، والتي تآزرت مع الشرط في تقرير المعنى الإيجاز وقد جاء ذلك في عدة مواطن:

الموطن الأول: قوله: "وأن محمدًا عبده ورسوله" فيه إيجاز بحذف المسند والتقدير: "وشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وحذف المسند لأنه معلوم لدلالة ما قبله عليه وهو قوله: "من شهد أن لا إله إلا الله ..." ففي حذفه نفي للفضول من الكلام.

الموطن الثاني: قوله "وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" وفيه إيجاز بحذف المسند كسابقه.

وتكرار الوصفين (العبودية والرسالة) مع محمد (ﷺ) وعيسى (عليه السلام) تناسبًا مع مقام الحديث عن عيسى (عليه السلام) فهما محلَّ الإنكار عند اليهود والنصارى، فاليهود ينكرون رسالته، والنصارى ينكرون عبوديته، فكان الوصف بالعبودية

ردًّا على النصارى في ادعائهم بنوَّته لله – تعالى –، والوصف بالرسالة ردًّا على اليهود في إنكارهم رسالته وقذفه بما هو منزه عنه. (١)

كما أن في تكرار هذين الوصفين تأكيدًا على أن العبودية لا تنافي الرسالة.

وتقديم الوصف بالعبودية لما ذكر ابن علان أنه (أشرف الأوصاف ولذا ذكره في الكتاب في أشرف المواطن كمقام الإسراء وإنزال الكتاب عليه) (٢)، فالتقديم فيه للتشريف والتعظيم.

وألمح في تقديم العبودية على الرسالة فضلاً عن سبقها في الترتيب الزمني، فإن في تقديمها تناسبًا مع مقصود الحديث – الرد على النصارى – ولأهميتها أيضًا فيما بعدها فلو أقرُّوا بالعبودية لأقروا بالرسالة.

الموطن الثالث: قوله: "والجنة حق والنار حق" إيجاز أيضًا بحذف المسند كالموطنين السابقين والتقدير: وشهد أن الجنة وشهد أن النار حق، وسر الحذف هنا هو ما سلفَ في الموضعين السابقين.

ومن الألوان البلاغية التي اشتمل عليها الحديث أيضًا التأكيد، ويطالعنا ذلك في موضعين:

الأول: من خلال بناء الحديث على أسلوب الشرط وجوابه تأكيدًا لتحقق الجزاء عند تحقيق الشرط كما ذكرت.

الثاني: من خلال الترغيب والترهيب في قوله "والجنة حق والنار حق" فذكر الجنة ترغيب في الإقرار بما جاء قبلها من وجوب الإيمان بعيسى

---

(١) ينظر: فتح الباري (٤٧٥/٦).

(٢) دليل الفالحين (٢٧١/٢).

(عليه السلام) وبما جاء عنه، وذكر النار ترهيب لمن يخالف ذلك، وهذا تأكيد لمقصود الحديث.

والترغيب والترهيب وسيلتان من الوسائل التي تدفع العبد نحو العمل بالأوامر بدوافع داخلية نابعة من الرغبة والرهبة، كما أنها (من الأساليب البلاغية التي تعمق الإحساس بالأشياء، وتزيد النفوس بصرًا بالحقائق، وذلك لأنها تختص بالجمع بين الأشياء المتناقضة). [1] كما أن هذه الخصوصية (تعطي الأسلوب قدرة على الإيقاظ، ويصير الحس معها كأنه يكون مستنفرًا مثارًا، حين يحس بما وراء هذه المتناقضات من صراعات وتجاذبات وهو يثب على قممها المتناقضة) [2]، وفي كل هذا تأكيد للمعنى المراد.

وقوله: "على ما كان من العمل"[3] زيادة في الترغيب والحث على الإيمان بما ورد في الحديث. ومن الوجوه البلاغية البارزة والتي كان لها دور في أداء المعنى في الحديث – عطف الخاص على العام – للتنبيه على أهمية الخاص، ويتجلى ذلك من خلال ذكر الإيمان بعبودية عيسى (عليه السلام) ورسالته بعد الحديث

---

(١) التحبير، د. محمد توفيق سعد (١٤٨)، مكتبة العمروسي، القاهرة.

(٢) قراءة في الأدب القديم، د. محمد أبو موسى (٢٨٨)، مكتبة وهبة.

(٣) قوله: "ما كان من العمل" ذكر ابن علان أن معناه (على أي عمل كان سيئًا أو حسنًا)، دليل الفالحين (٢٧١/٢)، وذكر ابن حجر – وهو ما أميل إليه – (أن الله يوفقه لعمل يدخله الجنة، أو يدخلهم الجنة على حسب أعمال كل منهم في الدرجات). فتح الباري (٤٧٥/٦)، وذكر ابن الملقن أن هذا (كان في أول الإسلام قبل نزول الفرائض، قال: ووجه هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن أهل التوحيد سيدخلون الجنة وإن عذبوا بذنوبهم فإنهم لا يخلدون في النار) التوضيح على الجامع الصحيح (٥٥٠/١٩)، ويؤيده: "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة".

عن الإيمان بمحمد (ﷺ) ورسالته، حيث يلزم من الشهادة لمحمد (ﷺ) بذلك الشهادة لسائر الأنبياء (عليهم السلام) لأن النبي (ﷺ) جاء بذلك، وعيسى واحد منهم، وإنما خصَّ عيسى هنا لأهميته في هذا المقام الذي يرد على النصارى، مما يؤكد دور المقام في اختيار الأساليب التي تناسبه. كما أن في ذكر عيسى (عليه السلام) في هذا المقام تعريضًا بالنصارى، وإيذانًا بأن إيمانهم مع قولهم بالتثليث شرك محض.

وبتقليب النظر في الحديث نلحظ دقة نبوية من نوع آخر تتمثل في اختيار فعلي الشرط والجزاء (شهد – أدخل) ماضيين مما يبالغ في تأكيد تحقق الجزاء عند تحقق الشرط، وفي هذا زيادة حث على الإيمان بما جاء في الحديث، فمن يلتزم بما جاء في الشرط حتمًا سيدخل الجنة.

موازنة:

جاء في الحديث عن محمد (ﷺ) قوله: "وأن محمدًا عبده ورسوله" في والحديث عن عيسى (عليه السلام): "وأن عيسى عبد الله ورسوله" وجليٌّ أن مضمون القولين واحد – الشهادة لمحمد وعيسى (عليهما السلام) بالعبودية والرسالة – وصورتهما متقاربة مما يجعل المتلقي يتطلع إلى معرفة الفرق بينهما. ولا مراء في أنه بإجالة النظر سيتبين له فرقًا يسيرًا بين التعبيرين اقتضاه المقام، ويتجلى ذلك من خلال إضافة عبودية محمد (ﷺ) إلى الضمير العائد على المولى – سبحانه – (عبده) بخلاف عبودية عيسى (عليه السلام) فأضيفت إلى لفظ الجلالة الصريح (عبد الله) ولعل السر في ذلك أنه لما كانت عبودية عيسى (عليه السلام) محلاً للإنكار عند النصاري اقتضى ذلك إضافتها إلى لفظ الجلالة الصريح للتسجيل على النصارى وتأكيد خطئهم في قولهم إنه ابن الله – تعالى الله عن ذلك –.

أما عبودية محمد (ﷺ) فلما لم تكن محلاً للنزاع أو الشك أضيف إلى الضمير العائد على المولى – سبحانه –.

يضاف إلى ذلك أنه زاد في أوصاف عيسى (عليه السلام) كونه كلمة الله[1]، وكونه روح منه تنزيهًا لعيسى وأمه (عليهما السلام) مما يزعمه النصارى تناسبًا مع مقام الحديث عنه، وأيضًا لإثبات أن كل هذه الأوصاف لا تتنافى مع الوصف بالعبودية تأكيدًا لعبوديته (عليه السلام). – انتهى –

وبعد، فالحديث كما سبق في شأن عيسى (عليه السلام) وذكر الجزاء الذي يلقاه من يؤمن بعبوديته، وقد بنى الحديث على الشرط وجوابه تأكيدًا لتحقق الجواب عند تحقق الشرط، كما أنه يفهم منه بمفهوم المخالفة أن من لم يؤمن بما جاء في الشرط يدخل النار، فكان أسلوب الشرط هو المهيمن على صورة الحديث وكان مناسبًا للمقام كما وضح، وتآزر معه في تحقيق المعنى بعض الألوان البلاغية الأخرى كالإيجاز بالحذف والتأكيد وعطف الخاص على العام وغيرها مما ساعد على أن يكون الحديث بنيانًا قويًا متماسك الأركان، وكان عطف جمل الشرط بالواو دليلاً على أنها لابد أن تجتمع كلها، فهي مترتبة على بعضها ترتيبًا محكمًا لا يصلح الإقرار ببعضها دون البعض الآخر، وأن الظفر بالجزاء لا يتحقق إلا بالإيمان بجميعها.

---

(١) قوله: "وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" إشارة إلى أنه حجة الله على عباده أبدعه من غير أب وأنطقه في غير أوانه، حيث أوجده بقوله كن، فلما كان بكلامه سمى به، وأما تسميته بالروح فلما كان أقدره عليه من إحياء الموتى، وقيل: لكونه ذا روح وجد من غير جزء من ذي روح، حيث حدث من نفخ الروح كما قال تعالى: "فنفخنا فيها من روحنا". ينظر: فتح الباري (٦/٤٧٥)، ودليل الفالحين (٢/٢٧١).

(الحديث الثاني)

عن عمر (رضي الله عنه) قال: سمعت النبي (ﷺ) يقول: "لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله".(١)

وهذا الحديث يأتي أيضًا في مقام الرد على النصارى في ادِّعائهم ألوهية عيسى (عليه السلام) وقد أدَّى إلى هذا الزعم مغالاتهم في مدحه (عليه السلام) مما حدا بهم إلى أن يصفوه بما لا يليق، وبما لا يمكن أن يقبله هو نفسه لو كان موجودًا بينهم وسمع منهم ذلك.

والحديث – كما هو واضح – شديد الصلة بالحديث السابقة.

وقد جاءت ألفاظ الحديث وتراكيبه متناسقة مع مقام الرد والتكذيب لهم.

فالحديث على الرغم من قِصَره إلا أنه ملئ بالألوان البلاغية المناسبة للمقام.

وقد جاء الرد عليهم من خلال عدة مظاهر أولها:

النهي في قوله: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم" حيث ينهى النبي (ﷺ) أصحابه أن يغالوا في مدحه حتى لا يصلوا إلى ما وصل إليه النصارى.

وفائدة هذا النهي الإشارة إلى خطأ النصارى في مغالاتهم في حق سيدنا عيسى (عليه السلام) وقد تضامن مع النهي في تقرير خطئهم التشبيه، حيث يشبههم في حالة مغالاتهم في مدحه – إن هم لم يمتثلوا للنهي – بحال النصارى في مغالاتهم في إطراء سيدنا عيسى (عليه السلام)، ووجه الشبه الخطأ الشديد والكذب في كل منهما.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء – باب قوله تعالى: "﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾"، صـ(٧٢٥)، رقم (٣٤٤٥). والإطراء: هو مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه.

وتبدو بلاغة التشبيه في نقله الصورة الخطأ التي عليها النصارى حتى يراها المسلمون فيحملهم ذلك على امتثال النهي الوارد في مطلع الحديث.

ومن البلاغة النبوية هنا عدم التصريح باسم عيسى (عليه السلام) فلم يقل: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، وإنما اقتصر على الوصف "ابن مريم" وبلاغة ذلك أن الحديث في مقام الرد عليهم فيما ادَّعوه في حقه من الألوهية، واختيار هذا الوصف "ابن مريم" فيه تناقض مع ادِّعائهم، لأن الإله لا يكون مولودًا مما بعد أبلغ رد عليهم في تكذيب دعواهم.

ومن البلاغة التي نجدها في الحديث أيضًا اصطفاء كلمة دون مرادفها مما يقاربها في المعنى، ومن ذلك اختيار صيغة الإطراء (لا تطروني) دون مرادفها وهو المدح، فلم يقل: لا تمدحوني، وذلك لأن الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه، أو هو: المدح بالباطل – كما ذكر الخطابي[1]، وهو متناسب مع ادِّعائهم ألوهية عيسى (عليه السلام) وإفراطهم في مدحه.

وكما تأنق النهي في الجملة السابقة في إثبات خطأ النصارى كان للقصر أيضًا تأنق في تأكيد خطئهم والتعريض بهم في الجملة التالية وهي قوله (ﷺ): "فإنما أنا عبده" وهي جملة خبرية مؤكدة بالقصر عن طريق إنما تأكيدًا لخطأ النصارى في ادعائهم، والقصر فيها قصر موصوف على صفة، حيث قصرت النبي (ﷺ) على صفة العبودية.

واختيار إنما أداة للقصر وهي لا تستعمل إلا في الأمور الواضحة المعلومة متناسق مع مضمون الجملة، فكون محمد (ﷺ) عبد الله أمر لا ينكره مسلم، ولكني ألمح من استعمال إنما هنا سرًّا آخر يتمثل في التعريض بالنصارى في

---

(١) ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٥٧٠/١٩).

ادِّعائهم ألوهية عيسى (عليه السلام) ومعلوم عند البلاغيين أن أحسن مواقع (إنما) حين تستعمل في التعريض.

يقول الإمام عبد القاهر: "ثم اعلم أنك إذا استقريت وجدتها "إنما" أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب، إذ كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، نحو: إنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة الرعد: (١٩)] أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذم الكفار وأن يقال: إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل وأنكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الألباب، وكذلك قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾ [سورة النازعات: (٤٥)]، وقوله عز اسمه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [سورة فاطر: (١٨)] المعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فهو كأنه ليس له أذن تسمع وقلب يعقل، فالإنذار معه كلا إنذار".[١]

فاستعمال إنما طريقًا للقصر هنا متناغم مع ما عليه النصارى لما تتضمنه من التعريض بهم.

ولا تقتصر الدقة النبوية هنا على اختيار "إنما" لتكون طريقًا للقصر، وإنما بدت دقة النبي (ﷺ) في اختيار المقصور – المسند إليه – ضمير المتكلم "أنا"

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، شرح وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجي صـ(٢٧٨، ٢٧٩) تحقيق وضبط وتعليق / محمد رضوان مهنا، مكتبة الإيمان، المنصورة.

ليتميز أكمل تمييزًا حتى لكأن المتلقي للخبر يشاهد النبي (ﷺ) وهو يشير إلى نفسه، وهذا تأكيد قوي للمعنى.

وبعد أن أكد النبي (ﷺ) عبوديته، أراد أن يقرر اتصافه بها بطريقة عملية وذلك من خلال تعليم أصحابه أن يقولوا: "عبد اله ورسوله" وهذا توبيخ أيضًا للنصارى ورد عليهم.

ومما يبالغ في التقرير هنا الإيجاز بحذف المسند إليه والتقدير: قولوا: محمد عبد الله ورسوله حتى تكون صفة العبودية هي أول ما يقرع السمع فتستتر فيه.

وعطف الرسالة على العبودية إيحاء بأنه لا تعارض بين الوصفين وهذا أبلغ رد عليهم.

وتقديم الوصف بالعبودية متناسب مع مقام الحديث، حيث يأتي في مقام الرد عليهم في إنكارهم عبوديته فكان الأنسب أن يقدم.

موازنة:

بإمعان النظر في الحديث يتضح أن الإقرار بعبودية سيدنا محمد (ﷺ) قد جاء مرتين مرة على لسانه "فإنما أنا عبده" ومرة على لسان أمته "عبد الله ورسوله" والقولان يشتملان على المعنى نفسه، وبالتأمل يتضح الفرق بينهما من عدة وجوه:

الأول: أكدت الجملة الأولى بإنما في قول النبي (ﷺ) وما تشتمل عليه من تعريض كما ذكرنا، أما الجملة الثانية فقد خلت من هذه الأداة ولعل ذلك لأن النبي (ﷺ) أراد أن يعلِّم أمته ألا يكون التعريض سلوكًا من سلوكياتهم حرصًا منه على أمته (ﷺ).

الثاني: الجملة الأولى ذكر فيها المسند إليه الضمير "أنا" تناسبًا مع سياق التأكيد، أما في الجملة الثانية والتي خفَّت فيها درجة التأكيد فحذف المسند إليه

ولا يخفى ما فيه من إيجاز واختصار يدعو إلى أن تنتشر هذه الجملة وتشيع على لسان عامة المسلمين فناسبها الإيجاز.

الثالث: أن صفة العبودية أضيفت – في الجملة الأولى – إلى الضمير العائد على المولى – سبحانه – تناسبًا مع ذكر الضمير "أنا"، وفي الجملة الثانية أضيفت إلى لفظ الجلالة الصريح – الله – تناسبًا مع الاسم الصريح المحذوف (محمد) (ﷺ).

الرابع: اقتصرت الجملة الأولى على الوصف بالعبودية بينما في الثانية زيد الوصف بالرسالة تعليمًا لأمته كيف يمدحونه (ﷺ) فهما وصفان حبيبان إلى نفسه (ﷺ) فلا يزيدوا عليها حتى لا يحدث لهم ما حدث للنصارى من مغالاة، وبهذا يتبين مدى قوة العلاقة بين خاتمة الحديث وبين النهي في مطلعه "لا تطروني"، مما جعل الحديث على درجة عالية من الإحكام.

ولا يخفى اتفاق الجملتين في الوصف بالعبودية وتكررها فيهما لأنها هي الصفة الأشد إنكارًا عند النصارى فاقتضت أن يؤكد عليها بتكرارها في الموضعين. والله أعلم.

وبعد، فأسلوب النهي كان أبرز الأساليب في الحديث، ووجه البلاغة في إبرازه هنا أن الحديث في مقام الرد على النصارى والتعريض بهم في ادِّعائهم ألوهية عيسى (عليه السلام)، فلم يرد عليهم بمواجهتهم صراحة، وتخطئتهم مباشرة، وإنما عمد النبي (ﷺ) إلى نهي أصحابه عن فعل ما فعلوه، والإقرار أمامهم بأنه عبد الله وتعليمهم أن يقولوا ذلك، مما يتوصل منه إلى إثبات خطأ النصارى في زعمهم بألوهية عيسى (عليه السلام).

وقد تضامن مع النهي في إبراز المعنى القصر والتشبيه وتكرار صفة العبودية، ولا يخفى ما للتكرار من دور في تثبيت المعاني، وما له من (تأثير في عقول المستنيرين، وتأثيره أكبر في عقول الجماعات من باب أولى والسبب في ذلك كون المكرَّر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان فإذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر، إذ أن الشيء إذا تكرر رسخ في الأذهان رسوخاً تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة) [1]، فكان تكرار صفة العبودية متناسبًا مع مقام الحديث.

ثانيًا: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن عيسى (عليه السلام) في مقام التعليم:

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق فقال له: أسرقت ؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني".[2]

ومقام الحديث يحكي قصة حدثت لنبي الله عيسى (عليه السلام) حين رأى رجلاً يسرق فسأله: أسرقت ؟ فنفى الرجل ذلك، وأقسم أنه ما سرق، فصدَّقه سيدنا عيسى (عليه السلام) وكذب ما رآه.

---

(١) روح الاجتماع، د/ جوستاف لوبون صـ(١٣٩)، ترجمة من اللغة الفرنساوية المرحوم / أحمد فتحي زغلول باشا، صححه ونشره / توفيق الرافعي، المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الثانية.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: "واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها"، صـ(٧٢٥)، رقم (٣٤٤٤).

والمقام وإن كان مقام حكاية كما هو ظاهر إلا أنه يحمل تعليمًا للناس ألا يعتمدوا في إصدار أحكامهم على ما يرونه من ظواهر الأمور، وإنما عليهم أن يستوثقوا ويسلكوا طرقًا متعددة في سبيل الوصول إلى حقائق الأشياء كما فعل عيسى (عليه السلام) فإن رؤيته الرجل يسرق لم تكفه في الحكم عليه، وإنما عمد إلى تقرير بذلك وسؤاله عن حقيقة ما فعله حتى يضاف الاعتراف إلى الرؤية، ولذلك لما نفى الرجل السرقة صدَّقه سيدنا عيسى (عليه السلام) وكذَّب ما رآه، وهذا تعليم ثان بأنه إن لم تتوافق الأدلة المتعددة على الشيء الواحد فالأجدر أن لا يحكم فيه.

وسياق الحديث يتقاسمه الخبر والإنشاء، فيبدأ الحديث بالخبر "رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق" وذكر العيني (أنه رآه يأخذ مالاً من حرز في خفية) [1]، وهذا الخبر يقرر حقيقة رآها سيدنا عيسى (عليه السلام).

والتعبير بفعل الرؤية تأكيد لأنه رآه على هذه الحالة، لدلالته على الرؤية بالعين الباصرة. والإتيان به ماضيًا دلالة على أنه حدث وانتهى تناسبًا مع تأكيد الرؤية من ناحية، ومع مقام الحكاية من جهة أخرى.

وتنكير "رجلاً" للتحقير لأن سياق الجملة سياق ذم له.

واقتضت البلاغة النبوية عدم التصريح باسم هذا الرجل صونًا له لما سيذكر بعد في خبرة من نفي السرقة عنه، وهذا تناسب مع مقام الحديث المبني على الستر وعدم الأخذ بما يظهر لأول وهلة.

والتعبير بالمضارع "يسرق" وروده في سياق الجملة الحالية استحضار لصورة الفعل للتأكيد وهذا مما يتضامن مع التعبير بالرؤية.

---

(١) عمدة القاري (٩٠/١٣).

وقوله: "فقال له: أسرقت" عطف القول فيه بالفاء إشارة إلى أنه بمجرد أن رآه يسرق سأله: أسرقت ؟ حتى لا يترك له مجالاً للإنكار.

والاستفهام فيه للتقرير بغرض حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بالفعل، وبجانب التقرير يحمل الاستفهام الإنكار، أي أنه ينكر عليه أنه سرق، يقول الزركشي: (حقيقة استفهام التقرير أنه استفهام إنكار). (١)

ولكون الاستفهام للتقرير فقد استعملت فيه الهمزة دون هل، لأن هل لا تستعل في التقرير وإنما تستعمل الهمزة(٢)، كما أن الاستفهام بالهمزة – كما يقول الزركشي (رحمه الله): (لابد أن يكون معه إثبات، فإذا قلت: أعندك زيد ؟ فقد هجس في نفسك أنه عندك فأردت أن تستثبته بخلاف هل). (٣) وهذا متوافق مع ما رآه عيسى (عليه السلام).

والمستفهم عنه هو ما يلي الهمزة وهو أن ما فعله الرجل من قبيل السرقة أم لا. فإن قيل: ما فائدة سؤاله بعد رؤيته يسرق ؟، قلت: هو تعليم الناس، ورسم الطريق لهم في مثل هذه الأمور أن يستوثقوا، ولا يحكموا بالظاهر قبل معرفة الحقيقة كاملة، كما فعل عيسى (عليه السلام) فهو وإن كان رأى الرجل يسرق إلا أنه سأله ليتأكد من حقيقة ما رآه، وذلك بتقرير الرجل بأن ما فعله هذا بقصد السرقة حيث (يحتمل أن يكون الرجل أخذ ماله فيه حق، أو ما أذن له صاحبه في أخذه، أو أخذه ليقلبه وينظر

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ت / محمد أبو الفضل إبراهيم (٣٣٣/٢)، دار التراث، القاهرة.

(٢) السابق (٣٣٢/٢).

(٣) السابق (٤٣٣/٤).

فيه ولم يقصد الغصب والاستيلاء) [1]، وهذا تعليم للناس ألا يتعجلوا الحكم في مثل هذه الأمور، وإرشاد لهم إلى ما يجب أن يفعلوه، وفي هذا حفاظ عليهم من أن تلصق التُّهم بالأبرياء دون أدلة مقنعة.

ولسائل أن يسأل: إذا كان الأمر كذلك: فلماذا وصفه النبي (ﷺ) بالوصف "يسرق" ؟ ولعل ذلك لما بدا له من حالة حين رآه سيدنا عيسى (عليه السلام) يأخذ شيئًا خفية.

ثم يأتي بعد ذلك إجابة الرجل على عيسى (عليه السلام) بالنفي المؤكد: "كلا: والله الذي لا إله إلا هو"، وقد جاء هذا الجواب على درجة عالية من القوة والتأكيد وقد تجلَّى ذلك فيما يلي:

١- إيثار التعبير (بكلا) في النفي دون (لا) وذلك لما في (كلا) من نفي بقوة وشدة.

٢- عدم الاكتفاء بالنفي وإنما إيلاؤه بالقسم "والله الذي لا إله إلا هو" تأكيدًا للنفي.

٣- اختيار المقسم به لفظ الجلالة "الله" تأكيدًا للنفي أيضًا لأن اسم الجلالة (أعظم الأسماء ... لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها بخلاف باقي الأسماء فإن كلاً منها لا يدل إلا على بعض المعاني من علم أو فضل أو قدوة أو غيرها، ولأنه أخص الأسماء إذ لا يطلق على غيره لا حقيقة ولا مجازًا بخلاف سائر الأسماء فإنه قد يسمي به غيره مجازًا) [2]، فكان التعبير به زيادة في تأكيد نفي السرقة عنه.

٤- وصف المقسم به بالوصف "الذي لا إله إلا هو" وبناء هذا الوصف على القصر تأكيد لنفي السرقة أيضًا، وأرى في اختيار هذا الوصف في سياق الحديث عن عيسى (عليه السلام) وتصديقه الرجل بعد أن حلف هذا القسم المؤكد أفضل رد على النصارى القائلين بألوهية عيسى (عليه السلام).

---

(١) عمدة القاري (٩٠/١٣).

(٢) الفتوحات الإلهية للجمل (٦٥٥/٢)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، دار المنار، القاهرة.

ولا شك أن كل هذه المؤكدات اقتضاها المقام، فالرجل مُـتَّهم فاقتـضى ذلك أن يأتي الرد على درجة عالية من الإحكام والتأكيد لنفي التهمة عنه، خاصة وأنه متهم من رسول لا يصدر إلا عن وحي.

وبعد هذا النفي المؤكد يكون الإقرار والاعتـراف بتـصديق عيـسى (عليه السلام) للرجل "آمنت بالله وكذَّبت عيني"، ومعناه: صدقت من حلف بالله وكذبت ما ظهر لي من كون الأخذ المذكور سرقة. (١)

ومن أبرز الألوان البلاغية في هذا الإقرار الطباق المعنوي(٢)، وقد بدا ذلـك في الطباق بين "آمنت" بمعنى صدقت وبين كذَّبت لإفادة المبالغة فـي تـصديق الحالف.

ومن البلاغة النبوية إيثار التعبير بالفعل "آمنـت" دون مرادفـه صـدَّقت لأن الإيمان يكون عن اقتناع داخلي، وهو ما يحقق المبالغة في تصديق سيدنا عيسى (عليه السلام) للرجل واقتناعه بحلفه ليرسم الطريق للناس أن لا يأخذوا بالظـاهر، وأن يقتنعوا بما قد تدرؤ به الحدود، وألا يقضوا بعلمهم، وإنما لابد من قرائن متعـددة متوافقة حتى لا يلصق حكم بأحد هو منه براء.

وبنظرة عامة على الحديث نلحظ هذا التناسب والتناسق بين الفعل "رأى" أول لفظة في الحديث، وبين كلمة "عيني" آخر لفظة فيه مما يعطيه شـكلاً جماليًـا، ويشعر حتى لكأن الحديث كله من واد واحد.

---

(١) عمدة القاري (٩٠/١٣).

(٢) الطباق المعنوي: هو أن يجمع فيه بين الشيء وضده في المعنى لا فـي اللفـظ. ينظـر: دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت، صـ(٤٧)، مطبعـة التركـي، طنطا.

وبعد، فالحديث وإن كان حكاه النبي (ﷺ) عن سيدنا عيسى (عليه السلام) فالقصد – كما هو واضح – تعليم أمته الاستيثاق في كل الأمور، وطرق كل الأبواب وصولاً إلى عين الحقيقة حتى يكون الحكم صائبًا.

أما بناء الحديث فقد جاء متوافقًا مع مقام التعليم، فجاءت أساليبه بين الخبر والإنشاء وكان لكل منهما موقعه من البلاغة والفصاحة والحسن، وكان التأكيد أيضًا أحد الركائز الأساسية في أداء المعنى على الوجه الأكمل، وختم الحديث بالطباق وهو لون بديعي خلاب بين آمنت وكذبت، فأبرز المعنى في صورة رائعة تأسر النفوس، وتستولي على الأفهام، فكان الحديث غاية في البلاغة الناطقة بالحسن والجمال.

ثالثًا: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن عيسى (عليه السلام) في مقام الرد على اليهود في ادعائهم قتله:

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها"، ثم يقول أبو هريرة (رضي الله عنه): "واقرءوا إن شئتم – وإن من أهل الدنيا إلا ليؤمَنَنَّ به قبلَ موتهِ ويوم القيامةِ يكونُ عليهمْ شَهيدًا".(١)

ومقام الحديث يحكي إعلامًا بغيب سيحدث آخر الزمان، وذكر خصوصية لسيدنا عيسى (عليه السلام) من نزوله وحكمة بشريعة سيدنا محمد (ﷺ) وإبطال غيرها

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم (عليهما السلام) صـ(٧٢٦)، رقم (٣٤٤٨).

من الشرائع ردًّا على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، ولذلك غلب على الحديث سياق الطابع الخبري تناسبًا مع مقام الحكاية.

وغرض الحديث إثبات أن الشرائع كلها تنسخ إلا شريعة الإسلام فإنها باقية إلى آخر الزمان لا يصل إليها نسخ حتى إن عيسى (عليه السلام) وهو من أصحاب الشرائع السابقة على الإسلام ينزل ليحكم بشريعة الإسلام.

والحديث يحمل من الألوان البلاغية الكثير، حيث يبدأ بالقسم: "والذي نفسي بيده" لتأكيد نزول عيسى (عليه السلام) وفعله ما سيخبر به.

وابتداء الحديث بالقسم له وجه بلاغي وهو أن نزول عيسى (عليه السلام) وكسره الصليب وقتله الخنزير وغير ذلك أمر غريب غير متوقع بالنسبة للمخاطبين فلربما ينكرونه، فناسب ذلك أن يؤكد الكلام بالقسم لإزالة هذا الإنكار، فالتأكيد بالقسم (يؤنس نفس السامع، ويزيل ما عساه يعلق بها من التردد وعدم التصديق، فتزداد النفس بالخبر يقينًا وله قبولاً وبه اطمئنانًا). (١)

ولم يقتصر التأكيد على الابتداء بالقسم وإنما جاء المقسم عليه أيضًا مؤكدًا "ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً" حيث أكد الفعل "يوشك" وهو من أفعال المقاربة لإفادة أنه لابد من ذلك سريعًا وهذا مما يزيد في غرابة الخبر، فأكد باللام والنون الثقيلة مبالغة في تأكيد نزول عيسى (عليه السلام)، فهو تأكيد فوق تأكيد، فالخبر قد أكد قبل أن يلقى بالقسم، وحين ألقى لم تتخلف عنه المؤكدات أيضًا، مما يشير إلى شدة غرابته.

---

(١) البيان القرآن في سورة مريم، د/ حسن أمين مخيمر، صـ(١٧٣)، مطبعة الأمانة، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

وتقديم الجار والمجرور "فيكم" على الفاعل "ابن مريم" لغرض بلاغي وهو تخصيص نزول عيسى (عليه السلام) في هذه الأمة لا في غيرها من الأمم.

واختصاص عيسى (عليه السلام) بالنزول دون غيره من الأنبياء لما ذكر ابن حجر: (الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه فبين الله – تعالى – كذبهم وأنه الذي يقتلهم، أو نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض إذ ليس لمخلوق من التراب أن يدفن في غيرها، وقيل: إنه دعا الله لما رأى صفة محمد وأمته أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام، فيوافق خروج الدجال فيقتله) [1]، ورجح ابن حجر الرأي الأول، وأرى أنه لا مانع من أن تكون كل هذه الآراء وغيرها صحيحًا خاصة وأنه ليس بينها تنافر.

وقوله: "حكمًا عدلاً" معناه حاكمًا عادلاً وهذا من التعبير المجازي الذي علاقته المصدرية للمبالغة في تحقيق العدل في الحكم.

وإيلاء الحاكم بصفة العدل إشارة إلى أن القول بالصلب وغيره من الأمور التي زعمها اليهود إنما هو ظلم، وأن ما سيفعله عيسى (عليه السلام) من كسر الصليب وقتل الخنزير وغير ذلك هو محاربة لهذا الظلم وقضاء عليه.

وقوله: "فيكسر الصليب ويقتل الخنزير" والفاء في "فيكسر" للسببية، أي سبب نزوله أن يفعل كذا وكذا.

وكسر الصليب وقتل الخنزير كناية عن إبطال دين النصرانية، وسر بلاغة الكناية أنها تأتي بالدليل المشاهد الملموس على إبطال النصرانية من خلال كسر

---

(١) فتح الباري (٤٩٣/٦).

الصليب وقتل الخنزير وهذا أبلغ في إثبات المعنى لما أن الكناية كدعوى الشيء ببينة وبرهان[1]، وإثبات الشيء ببرهانه أبلغ في إثباته من غير بينة.

والوصل بين جملتي "يقتل ويكسر" لإفادة أن فعله لا يقتصر على كسر الصليب وإنما يفعل كل ما من شأنه أن يؤدي إلى إبطال النصرانية ومحو آثارها.

وقوله: "ويضع الجزية" معناه: أن الدين يصير واحدًا فلا يبقى من أهل الذمة أحد يؤدي الجزية، وقيل معناه: أن المال يكثر حتى لا يبقى من يمكن صرف مال الجزية له فتترك الجزية استغناءً عنها، وقال عياض: يحتمل أن يكون المراد بوضع الجزية تقريرها على الكفار من غير محاباة، ويكون كثرة المال بسبب ذلك، وتعقبه النووي: وقال: الصواب أن عيسى لا يقبل إلا الإسلام ويؤيده رواية أحمد "وتكون الدعوى واحدة".[2]

وأميل إلى ما ذكره النووي لما يشتم من قوله: "ويضع الجزية" أن الإسلام سينتشر حتى لا يبقى أحد على غير هذه الملة حتى تطلب منه الجزية، وهذا متناسب مع كسر الصليب وقتل الخنزير، والتقرب إلى الله – تعالى – بالعبادة حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها.

وقوله: "ويفيض المال حتى لا يقبله أحد" وسبب كثرته كما ذكر ابن حجر (نزول البركات وتوالي الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم وحينئذ تخرج الأرض كنوزها، وتقل الرغبات في اقتناء المال لعلمهم بقرب الساعة). [3]

---

(١) ينظر: شروح التلخيص (٤/٢٧٥).

(٢) فتح الباري (٦/٤٩١، ٤٩٢).

(٣) السابق (٦/٤٩٢).

وهذا القول كناية عن كثرة الخيرات في هذا الزمن، وتناسق مع الكناية في إبراز المعنى كل مفردات الجملة، ويتضح ذلك من خلال إيثار التعبير بالفعل "يفيض" دون يكثر لأن الفيض يتحقق بعد إشباع الحاجة فيفيد ذلك أن المال في هذا الوقت يزيد عن حاجة الناس بخلاف الكثرة فقد يكثر المال دون أن يشبع حاجة صاحبه، وقد تكون هذه الكثرة سببًا في زيادة نهمه.

ومما يتآزر مع الكناية أيضًا التعبير بـ (المال) وهو لفظ عام يقصد به كل أنواع المال للإشارة إلى كثرة المال بشتى أنواعه دلالة على كثرة الخيرات.

ومن التناسق والدقة أيضًا التعبير بـ (حتى) وهي غائية تبين أن المال يفيض حتى يصل الأمر إلى أنه لا يقبله أحد.

ومن التناغم أيضًا التعبير بالفعل "يقبل" دون يأخذ لما يشعر به من النفور والكراهية للمال، فلو عبر بالأخذ فلربما فهم أنه لا يأخذه مع شدة حبه له، واشتهائه إياه. ولذلك كان من المناسب أن تختم الجملة بلفظ (أحد) منكرًا لإفادة العموم، أي أنه لا يقبله أي أحد مهما كان حبه للمال.

ولذلك كان البيان النبوي هنا غاية في البلاغة والدقة والتناسب.

وقوله: "حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها" أي أنهم لشدة إيمانهم وصلاحهم في هذا الزمان لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادة، وقيل معناه: أن الناس يرغبون عن الدنيا حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها[1]، وقال القرطبي: (معنى الحديث أن الصلاة حينئذ تكون أفضل من الصدقة لكثرة المال إذ ذاك وعدم الانتفاع به حتى لا يقبله أحد) [2] مما يدل

---

(١) فتح الباري (٤٩٢/٦).

(٢) عمدة القاري (٩٣/١٣).

على قوة الإيمان، وشدة الصلاح والتقرب إلى الله حتى أنهم يؤثرون الركعة الواحدة على الدنيا وما فيها.

واللون البلاغي الغالب على هذه الجملة هو المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية وذلك بإطلاق الجزء (السجدة) وإرادة الكل (الركعة).

ولعل السر في أبلغية المجاز هنا هو المبالغة في إثبات قوة إيمانهم يومئذ حتى إن السجدة وهي بعض الركعة تكون أحب إليهم من الدنيا وما فيها مما يبالغ في قوة الإيمان وشدة الصلاح والتقرب إلى الله.

وإطلاق السجود على الركعة هنا متوافق مع ما جاء في القرآن الكريم من إطلاقه على الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة الحج: (٧٧)]، وقوله ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة آل عمران: (٤٣)]، وقوله – سبحانه –: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [سورة الحجر: (٩٨)].

كما أنه متوافق مع ما اشترطه البلاغيون في الجزء المعبَّر به عن الكل أن يكون جزءًا جرى العرف على استعماله في الكل، أو مما له مزيد اختصاص بالمعنى المراد. (١)

---

(١) ينظر: أفنان البيان، د/ الشحات أبو ستيت، صـ(٢٢١)، مطبعة التركي، طنطا، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

وقد تحقق الشرطان هنا، فإطلاق السجود على الركعة كلها متوافق مع ما ورد في القرآن الكريم كما ذكر، مما يدل على أنه جزء جرى العرف على استعماله في الكل، وهو أيضًا له مزيد اختصاص بالمعنى المراد، إذ المعنى لإثبات قوة إيمانهم، وقربهم إلى الله – تعالى – في هذا الزمن، ولا شك أن أعلى درجات القرب من الله – تعالى – تكون في حالة السجود، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولذلك ناسب المجاز هنا المقام خير مناسبة.

ووصف السجدة بالوصف "واحدة" تأكيد لشدة قربهم وقوة إيمانهم.

وبعد. فقد حفل الحديث – كما رأينا – بالألوان البلاغية المتكاثرة وكان من أهمها القسم "والذي نفسي بيده" والتأكيد المتناثر في شتى أجزاء الحديث، والكناية في قوله "فيكسر الصليب ويقتل الخنزير"، وقوله: "ويفيض المال" والمجاز المرسل في إطلاق السجدة على الركعة، هذا فضلاً عن اختيار الصيغ المعبِّرة المناسبة للمقام والمتآزرة مع الألوان البلاغية للنهوض بأعباء المعنى على أكمل وجه، وكانت كلها غاية في البلاغة والفصاحة.

ويمكن الوصول إلى علاقة هذا الحديث بما ورد في القرآن الكريم من خلال الآية التي ذكرها أبو هريرة (رضي الله عنه) في آخر الحديث وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١) [سورة النساء: (١٥٩)].

---

(١) اختلف المفسرون في مدلول هذه الآية تبعًا لاختلافهم في مرجع الضمير في "موته" قال جماعة: وما من أهل الكتاب أحد إلا يؤمن بعيسى (عليه السلام) قبل موته – أي عيسى – وذلك على القول بنزوله قبل الساعة، وقال جماعة: وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن =

حيث إن ما جاء في القرآن الكريم أخبر إجمالاً أن أهل الكتاب سيؤمنون بعيسى (عليه السلام) ولن يتخلف أحد منهم عن ذلك، مما قد يثير تساؤلاً مفاده: كيف يكون إيمانهم ؟ فجاء البيان النبوي بالإجابة تحمل شيئًا من التفصيل وهي أنه ينزل في آخر الزمان ويفعل ما يفعل، حتى يتحقق ما أخبرت به الآية الكريمة، مما يظهر وثوق الصلة بين البيان القرآني والبيان النبوي.

والله أعلم

=

بعيسى قبل موته، أي موت الكتابي، وذلك على القول بأن الميت – وهو في سكرات الموت – يتبين له الحق، حيث لا ينفعه أن يعلم. ينظر: في ظلال القرآن للشيخ / سيد قطب (٨٠٢/٢، ٨٠٣)، ويؤيد الرأي الثاني – وهو الذي مال إليه صاحب الظلال – قراءة أبيّ "إلا ليؤمنن به قبل موتهم" فهذه القراءة تشير إلى عائد الضمير، وأنه أهل الكتاب.

ورجح الزمخشري أيضًا الرأي الثاني، فذكر أن المعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله: يعني إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف. ينظر: الكشاف (٥٨٠/١)، والآراء في ذلك كثيرة، ومن أراد المزيد فليرجع إلى: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤/٦)، ونظم الدرر للبقاعي (٤٩٧/٦)، وتفسير أبي السعود (٢٥٣/٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٦).

الخاتمـــة

بعد هذه المعايشة الممتعة لكلام النبي (ﷺ) في شأن أقرانه من أولى العــزم، يمكن إيجاز أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة فيما يلي:

١- رأينا أن معظم الأحاديث كانت تأخذ الشكل القصصي لذلك غلب عليهــا الطابع الخبري، فكانت معظم الجمل فيها خبرية تقل بجانبهــا الجمــل الإنشائية.

٢- كان لكل حديث لون بلاغي خاص مهيمن على سياق الحديث ومتناســب أشد التناسب مع المقام، وبجانب هذا اللون كانت ألوان أخــرى حــسب اقتضاء المقام.

٣- كان الإيجاز بحذف الجمل سمة غالبة على معظم الأحاديث تناســبًا مــع مقام القصص.

٤- ظهر أيضًا أن التوكيد كان له دور بارز في تقرير المعنى فــي معظــم الأحاديث وذلك لأن معظمها كان إخبارًا عن أمور غيبية ممــا يجعلهــا بحاجة إلى التأكيد.

٥- لحظنا أيضًا ندرة لصور المجاز، وذلك متناسب مع المقام، لأن أحاديــث النبي (ﷺ) عن أولي العزم كانت إخبارًا عن حقائق حدثت أو ســتحدث لهم فلا مجال إذًا للمجاز أو المبالغات.

٦- وضح أن ما ذكره النبي (ﷺ) عن أولي العزم لم تكن هي نفس المواقف التي ذكرها القرآن الكريم عنهم، وإن كانت متصلة بها اتصالاً وثيقًــا، فمثلاً في حديثه عن نوح (عليه السلام) يذكر القرآن ما حدث بينه وبين قومــه في الدنيا من إعراضهم عنه وإيذائهم له دون تعرض لما يحدث بيــنهم وبينه في الآخرة فجاء البيان النبوي وذكر ما سيحدث بينه وبينهم فــي

الآخرة، وكذا في حديثه عن إبراهيم (عليه السلام) وأبيه، وفي حديثه عن موسى (عليه السلام) يذكر صفاته الدنيوية في موضع الاقتداء به دون أن يتعرض لما لاقاه من فرعون وقومه مما ذكره القرآن الكريم، وفي الحديث عن عيسى (عليه السلام) يذكر القرآن الكريم ما حدث من اليهود والنصارى في شأنه من افتراءاتهم عليه ومغالاتهم في شأنه، فيأتي البيان النبوي محذرًا من هذه الافتراءات، ومبينًا ما سيكون من عيسى (عليه السلام) في آخر الزمان لدحر هذه الافتراءات، وتفنيد هذه المزاعم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قائمة المصادر والمراجع

١-الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ت د/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط٤، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٢-الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د/ صباح دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٣-أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د/ صباح دراز، مطبعة الأمانة، ط١.
٤-الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
٥-أفنان البيان، د/ الشحات أبو ستيت، مطبعة التركي، طنطا ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
٦-الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، ت د/ خفاجي، دار الجيل.
٧-البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ت / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.
٨-البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م.
٩-البيان القرآني في سورة مريم، د/ حسن أمين مخيمر، مطبعة الأمانة، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
١٠- التحبير، د/ محمود توفيق سعد، مكتبة العمروسي، القاهرة.
١١- التفسير البلاغي للاستفهام في الذكر الحكيم، د/ عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٢- التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن، ت / دار الفلاح، تقديم أ.د/ أحمد معبد عبد الكريم - إصدارات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بقطر.

١٣- حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص، مطبعة السعادة، مصر، ط٢، ١٣٤٢هـ.
١٤- دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت، مطبعة التركي، طنطا.
١٥- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، شرح وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ت/ محمد رضوان مهنا، مكتبة الإيمان، المنصورة.
١٦- دلالات التراكيب، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، دار التضامن، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
١٧- دليل الفاحلين لابن علان الصديقي، ت / عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
١٨- روح الاجتماع، د/ جوستاف لوبون، ترجمة من اللغة الفرنساوية المرحوم / أحمد فتحي زغلول باشا، صححه ونشره / توفيق الرافعي، المطبعة الرحمانية بمصر، ط٢.
١٩- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للنووي، مراجعة / محمد محمد تامر، دار التقوى، شبرا الخيمة.
٢٠- السنة بياناً للقرآن، د/ إبراهيم الخولي، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٩٣م.
٢١- شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهري، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى الحلبي.
٢٢- شروح التلخيص، مطبعة السعادة، مصر، ط٢، ١٣٤٢هـ.
٢٣- صحيح البخاري، ت / طه عبد الرءوف سعد، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٢٤- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للعيني، مطبعة الحلبي، ط١، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

٢٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ، إعداد / موقع روح الإسلام، ت / عبد العزيز عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، ترقيم / محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار الفكر (مصور عن الطبعة السلفية).
٢٦- الفتوحات الإلهية للجمل، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، دار المنار، القاهرة.
٢٧- فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات لنور الدين بن نعمة الله الحسيني الموسوي الجزائري، ت د / محمد رضوان الداية، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢٨- قراءة في الأدب القديم، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة.
٢٩- الكشاف للزمخشري، ت / محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٣٠- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.
٣١- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د/ فاضل السامرائي، دار عمار، عمان، الأردن.
٣٢- المطول لسعد الدين التفتازاني، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، ١٣٣٠هـ.
٣٣- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت / محمد خليل عتياني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٣٤- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم "الفاء وثم"، د/ محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة.
٣٥- من بلاغة النبي (ﷺ) في بيانه عن المرأة، د/ سعيد جمعة، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بالقاهرة، عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٣٦- نظرات في علم البيان، د/ محمد عبد الرحمن الكردي، مطبعة السعادة، ١٩٨٣م.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
المقدمة	٢٢٣
المبحث الأول: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن نوح (عليه السلام)	٢٢٦
أولاً: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن نوح (عليه السلام) في مقام الإنذار	٢٢٦
ثانيًا: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن نوح (عليه السلام) في مقام التكذيب	٢٣٤
المبحث الثاني: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن إبراهيم (عليه السلام)	٢٤٢
أولاً: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن إبراهيم (عليه السلام) في القيامة	٢٤٢
ثانيًا: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن إبراهيم (عليه السلام) في مقام الصدق	٢٥٧
المبحث الثالث: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن موسى – عليه السلام –	٢٧١
أولاً: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن موسى (عليه السلام) في مقام التبرئة	٢٧١
ثانيًا: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن موسى (عليه السلام) في مقام الغضب	٢٨١
المبحث الرابع: السِّمات البلاغية في الحديث عن عيسى (عليه السلام)	٢٩٠
أولاً: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن عيسى (عليه السلام) في مقام التوحيد	٢٩٠
ثانيًا: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن عيسى (عليه السلام) في مقام التعليم	٣٠٢
ثالثًا: السِّمات البلاغيَّة في الحديث عن عيسى (عليه السلام) في مقام الرد على اليهود في ادِّعائهم قتله	٣٠٧
الخاتمة	٣١٥
قائمة المصادر والمراجع	٣١٧
فهرس الموضوعات	٣٢٠